# نصوص أدبية
# من العصرين: الإسلامي والأموي
## دراسة تحليلية

الأستاذ الدكتور
**عبد الجواد المحص**
أستاذ الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بالاسكندرية ودمنهور

٢٠٠٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وبعد..

فهذه دراسة أدبية تحليلية لجملة من روائع النصوص الأدبية اخترتها من العصرين : الإسلامي والأموى لطالبات السنة الثانية في شعبة اللغة العربية بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية. وقد راعيت في هذا الاختيار أن يكون جامعًا بين الشعر والنثر.

والله أسأل أن ينفع به ويبارك فيه إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

المؤلف

# الفصل الأول

## تحليل فنى
## لروائع من عصر صدر الإسلام

# قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح

قال تعالى :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا * فَلَمَّا
بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا * فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا
غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا * قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا * قَالَ ذَلِكَ مَا
كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا * فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا *
قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا * قَالَ
سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ
شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ
أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا *
قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا
فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ
تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي
عُذْرًا * فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا

جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا * أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ
فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا * وَأَمَّا الْغُلَامُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا * فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا
مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ
لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ
رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

(سورة الكهف : ٦٠ - ٨٢)

## دراسة وتحليل

مما يلفت النظر ويسترعى الانتباه : أن القرآن الكريم -فى قصصه المعجز- قد ركز على سيدنا موسى -عليه السلام- تركيزًا قويًا، حتى إن المواضع التى ذكر فيها اسمه قد بلغت مائة وستة وثلاثين موضعًا، توزعت على أربع وثلاثين سورة. ولم يظفر اسم نبى فى القرآن الكريم بمثل ذلك النصيب الأكبر الذى ظفر به سيدنا موسى عليه السلام.

ويعد النص السابق الذى اخترناه من سورة الكهف إحدى حلقات هذه القصة الطويلة التى أوردها القرآن الكريم عن هذا الرسول الكريم فهى تمثل قصة قصيرة من قصص هذه القصة الطويلة، وتتكون -كما رأينا- من ثلاث وعشرين آية لم ترد فى غير سورة الكهف.

ولقد جاء ذكرها فى هذه السورة -بالذات- معلمًا بارزًا من معالم الإعجاز القرآنى، ومظهرًا من مظاهر العناية الإلهية الفائقة بوضع القصة فى المكان الذى يناسبها ويليق بها من سور القرآن الكريم.

فالقصة -من ناحية- تحتوى على جملة من الحقائق فى كهوف، ولكن الكهوف التى تستر الحقيقة تأتى أولاً، ثم بعد ذلك تأتى الحقائق، ومن هنا، فإن سيدنا موسى -عليه السلام- عندما يرى الكهوف، ولا يرى الحقائق التى تسترها لا يستطيع الصبر على ذلك ... العبد الصالح حكم بعلمه الذى علمه الله، وموسى عليه السلام حكم بما يعلمه، ولذلك اصطدم الحكمان، فالعبد الصالح كان يقوم بعمل خيِّر (حقيقة مستورة فى كهف ظاهره الشر)، وموسى كان يرى فى هذه الأعمال ما هو ظاهر فقط، ويحكم به، لأنه لا يعلم بواطن الأمور.

والقصة -من ناحية أخرى- تمثل الحكمة الكبرى التى لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار، ثم تبقى مغيبة فى علم الله وراء الأستار، فهى -إذن- ترتبط

بقصة أصحاب الرقيم فى ترك الغيب لله الذى يدبر الأمر بحكمته، وفق علمه الشامل الذى يقصر عنه البشر الواقفون وراء الأستار .. لا يكشف لهم عما وراءها من الأسرار إلا بمقدار.

(٣) والقصة -من ناحية ثالثة- تشير إلى العلم الذى يعمق الإيمان بالله علام الغيوب ... العلم اللدنى الذى لا ينكشف إلا لمن آتاه الله رحمة من عنده، وعلمه من لدنه علما.

(٤) ومن ناحية رابعة، فإن سورة الكهف قد احتوت -من بين ما احتوت- على قصتى أصحاب الكهف، وذى القرنين، وهما قصتان نزلتا حينما أوعز اليهود للمشركين أن يسألوا النبى ﷺ عنهما، وعن الروح، وقالوا لهم : (إن أخبركم بهن فهو رسول فاتبعوه، وإلا كان رجلاً متقولاً تصنعون به ما بدا لكم). فلما أنزل الله سورة الكهف مشتملة على قصتى أصحاب الكهف وذى القرنين، جعلها مشتملة -أيضًا- على قصة سيدنا موسى مع العبد الصالح لينبه المشركين واليهود معًا، وكذلك المسلمين، على أن النبى ﷺ لا يلزمه أن يكون عالمًا بجميع القصص والأنباء، فها هو موسى -مثلاً- الذى كان يعترف به اليهود فى المدينة دون محمد، يلتقى مع الخضر عليه السلام، ويخفى عليه تفسير الأحداث الثلاثة التى وقعت من الخضر، بل إن اليهود أنفسهم لم يعرفوا هذه القصة إلا عن طريق القرآن الكريم.

(٥) ومن ناحية خامسة، فإن الآيات التى سبقت هذه القصة فى سورة الكهف، قد ذكرت أن الإنسان أكثر شىء جدلاً، يثق فى آرائه، ولا يعتد بغيره، وحين تأتيه الرسل بالآيات مبشرين ومنذرين يلجأ إلى الجدال بالباطل، ليدحض به الحق معرضًا عنه استهزاء وسخرية، ثقة فيما يتعاطى من الجدل والمراء، ناسيًا أن لكل علم نهاية، وأن ذوى اللجاج من هؤلاء لا يبلغون من

العلم شيئًا مهما ادعوه، فناسب ما ذكره القرآن الكريم في هذه الآيات أن يذكر من بعده قصة موسى مع العبد الصالح، لأنها قصة تدل على أن نبي الله المختار موسى، وكليمه المجتبى لم يصل في العلم إلى مبلغ ما تمكن به سواه من البصر والدراية والنفاذ.

فلكل هذه الأسباب وغيرها من مرادات الحكيم الخبير ذكرت هذه القصة في سورة الكهف دون غيرها من سور القرآن الكريم.

ولقد عرضها القرآن الكريم -كتاب العربية الأكبر- عرضًا فريدًا يعجز الأدباء والبلغاء عن الإتيان بمثله. فقد صورت ببراعة لا مثيل لها فكرة الرحلة في طلب العلم والاجتهاد في كشف الحقائق والأسرار، وكانت في هذا المجال من أروع القصص الذي يمكن تسميته (بقصص الموازنة بين ما نعلم وما لا نعلم، وما ندرك من الأسباب الظاهرة، وما يغيب عنا من الأسباب الخفية).

إنها قصة رحلة علمية تنبئ بسبق القرآن الكريم إلى ما يسمى في عصرنا الحديث بأدب الرحلات .. وهي رحلة علمية يخلص فيها -كما نرى- التابع والمتبوع الطاعة لله رب العالمين، ولا يبتغي فيها الأستاذ عن تلميذه سوى الأجر من الله.

إنها قصة تُعلّمنا -من بين ما تُعَلِّمُ- كيف نتحمل المشقة في تحصيل العلم، وكيف نذلل كل الصعوبات التي تعترضنا في التحصيل، وكيف يستدر طالب العلم السماح من أستاذه ليدخل في تبعيته، ويلح في ذلك حتى يأذن له بحسن الصحبة. وكيف يتجمل طالب العلم بالتواضع وحسن الاستجابة والإنصات لأستاذه، والاسترشاد بنصائحه، والتزام أوامره، والمسارعة بالاعتذار حين يشعر أنه قصر فيما يجب عليه نحوه.

والقصة تعلمنا كذلك كيف يبصر الأستاذ مريديه بآداب التعلم،

وكيف يرد الصواب فى كل ما يخطئ فيه التلميذ، وكيف لا يتركه جاهلاً بمسائل الدرس، وقضايا العلم، وكيف ينسب العلم والفضل إلى الله فى كل ما يشرحه من دروس.

لقد أشارت القصة بتصويرها المعجز وإيماءاتها النفاذة إلى كل هذه الآداب وكل تلك الأصول فى التربية والتعليم والتهذيب.

ومما لا شك فيه : أن القصة -كما نرى- تمتاز بالإيجاز والشمول، والوضوح والصفاء .. كما تمتاز بجاذبية العرض، وقوة النظم وإعجاز التصوير ودقة الاختيار للألفاظ والتعبيرات الموحية المؤثرة.

ويكفينا -فى هذا المجال- أن نشير -مثلاً- إلى روعة التعبير بلفظ (الفتى) عن (يوشع بن نون) خادم سيدنا موسى وعبده الذى رافقه فى هذه الرحلة الشاقة الطويلة ... وذلك أن لفظ الخادم والعبد والأمة يرفضه الخلق القرآنى، وينبو عنه الذوق الإسلامى، بدليل قول سيدنا محمد ﷺ : (ليقل أحدكم فتاى وفتاتى، ولا يقل : عبدى وأمتى).

فالقرآن الكريم بهذا التعبير قد أضفى على (يوشع) أجمل لباس يتحلى به، وهو لباس الفتوة والشباب .. موطن الإعزاز فى الإنسان، وأنضر حلقات العمر .. وهو متلائم تماماً -ولو كان شيخاً وقتئذ- مع ما عهد إليه فى الرحلة من عمل، إذ كانت له مهمة لا ينهض بأعبائها إلا من كان فى قوة الفتى وعنفوان الشباب .. وهو بهذه الصفة قد استطاع أن يواصل السير مع رسول من أولى العزم أخذ على نفسه -ومعه فتاه- أن يظل سائراً حتى يلتقى بأستاذه (الخضر)، ولو أمضى العمر كله فى سبيل ذلك، فما أروع التعبير بالفتى فى هذه القصة المصورة لرحلة علمية شاقة طويلة ..

ولننظر -أيضًا- إلى قوله تعالى : ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾، وكيف لم يقل : (آتنى غدائى)، لأن الطعام مشترك بين موسى وفتاه، لا يختص به السيد تفضلاً، ثم يلقى نفايته وفضلته إلى الخادم، إذ ليس هذا من خلق الهداة.

ولننظر -كذلك- إلى قوله تعالى : ﴿أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾، وكيف لم يكن اللجوء إلى السهل من الأرض، وكان ذلك فى الإمكان حتى لا يتجشم موسى وفتاه المتاعب، لكنها رحلة العلم التى يركب فيها الإنسان أشق المراكب، ويصعد إليها أوعر الصخور، لأنه يُقَدِّرُ فى ذلك أن ثواب العلم على قَدْرِ المشقة.

وما أروع التصوير القرآنى فى قوله تعالى -على لسان موسى عليه السلام- : (هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا) ؟ فسيدنا موسى شخصية فى القصة تمتاز بالأدب البالغ فى التعبير، فسيدنا موسى -كما نرى- لم يطلب التلمذة مع سيدنا الخضر بأسلوب الطلب العادى. وإنما بأسلوب إنشائى طريقة الاستفهام الموحى بعدم الإلزام للأستاذ أو الإلحاح عليه فى قبول التلمذة على يديه.

ثم يبلغ الأدب بموسى : أنه لا يجعل التماسه العلم من الخضر تلمذة فحسب، وإنما تبعية مطلقة وامتثال لأستاذه مقابل بكلمة منه. على أن سيدنا موسى لا يطلب مجرد علم -فلديه من العلم الكثير- وإنما يطلب نوعًا خاصًا من العلم، ومن هنا لم يقل للخضر : (على أن تعلمنى مطلقًا) أو (عسى أن تعلمنى علما)، وإنما قال له : (على أن تعلمنى مما علمت) ؟ فلفظ (من) للتبعيض، أى على أن تعلمنى بعضًا من الذى تعلمته، وكأنه يطلب نوعًا مما نسميه الآن بالتخصص أو الدراسات العليا.

ونلحظ فى هذا التعبير القرآنى المعجز أيضًا : أن موسى يطلب العلم لغاية نبيلة وهدف محدد، وهو (الرشد) فليس علمه لمجرد الترف النفسى، أو للمكاثرة به، أو للعلم لذاته، وإنما ليصل به إلى غاية نبيلة محدودة وهى الرشاد الدينى.

وما أروع التصوير القرآنى فى قوله تعالى -على لسان العبد الصالح- ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فإنه تعبير كان الهدف منه تنبيه سيدنا موسى إلى حقيقة الفارق بين العلم اللدنى والعلم البشرى، فالعلم اللدنى ثقيل، ولن يصبر عليه موسى، ولن يصبر على اتباع الخضر بالتالى، ولما كان هذا الحكم يحوى شيئًا من الغرابة، أو عدم الاقتناع به؛ فإن الخضر لجأ إلى تحليل هذا الحكم وتعليله بقوله لموسى : ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾.

ونظرًا لأن الخضر كان على دراية تامة بثقل العلم اللدنى على موسى، فإنه قال له : ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾. فنلحظ أن نغمة الشك التى يوحيها لفظ (إن) ليست منصبة على الاتباع ذاته، وإنما نبعت من دقة الخضر فى التعبير عن شىء يعلمه ويتوقعه، فهو يتوقع أن موسى لن يستطيع السكوت على ما يصدر عنه من أمور ظاهرها منكر، وإن كانت فى الحقيقة التى لا يدركها خيرًا معروفًا يثيب الله عليه.

هذا ويسترعى انتباهنا فى إعجاز التصوير القرآنى لهذه القصة أن سيدنا موسى قد وصف خرق السفينة بأنه شىء إمر، أى عجيب، ووصف قتل الغلام بأنه شىء نكر، أى تنكره العقول والشرائع، ولم يصف بناء الجدار بإحدى هاتين الصفتين، وإنما عقب عليه بقوله : ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

وكل هذه التعبيرات بلغت غاية الدقة، ولا يصلح أحد منها موضع الآخر، فلكل تعبير حكمة تخصصه بمكانه، فالحادث الثالث لا يتعارض مع الشريعة، أما الأول والثانى فيناقضان الأحكام الثابتة فى الشرائع الإلهية، فليس هناك شريعة تبيح لإنسان إفساد شيء مملوك لآخر، ولا قتل نفس بغير ذنب. ولماكان خرق السفينة التى لم يغرق منها أحد أهون من قتل الغلام الذى هلك بالفعل، فإن موسى وصف خرق السفينة بأنه شيء عجيب، ووصف قتل الغلام بأنه شيء منكر.

فما أروع الإعجاز فى استخدام الكلمات الخاصة بكل حدث من أحداث القصة.

كذلك يسترعى انتباهنا -فى قراءتنا لهذه القصة المعجزة- أن سيدنا الخضر عليه السلام، لَمَّا أراد ذكر العيب للسفينة نسبه لنفسه أدبًا مع الربوبية فقال : (فأردت)، ولما كان قتل الغلام مشترك الحكم بين المحمود والمذموم، استتبع نفسه مع الحق، فقال فى الإخبار بنون الاستتباع (فأردنا) ليكون المحمود من الفعل -وهو راحة الأبوين المؤمنين من كفر غلامهما- عائدًا على الحق سبحانه، والمذموم ظاهرًا- وهو قتل الغلام بغير حق- عائدًا على الخضر. وفى إقامة الجدار كان البناء خيرًا محضًا، فنسبه الخضر للحق وحده، فقال : ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾، ثم بين أن الجميع من حيث العلم التوحيدى من الحق بقوله : ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى﴾.

ويسترعى انتباهنا -كذلك- أن الفعل المضارع المشتق من الاستطاعة قد جاء فى القصة مرة بالتاء هكذا : ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

وجاء مرة ثانية بدون التاء هكذا : ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أى هذا تفسير ما ضقت به ذرعا، و لم تصبر حتى أخبرك به ابتداء.

والحكمة من هذا التنويع فى التعبير : أن الأحداث التى وقعت من الخضر كانت قوية ثقيلة على نفس سيدنا موسى، ولكن لما فسر الخضر لموسى وبين ووضح هان عليه خرق السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بدون أجر، ومن هنا قابل الخضر الأثقل فى التعبير بالأثقل فى النفس، والأخف فى التعبير بالأخف فى النفس.

هذه لمحات بلاغية، وإشراقات بيانية نستشفها حين قراءتنا لهذه القصة فى القرآن الكريم كتاب العربية الأكبر.

أما عن عنصر الأحداث فيها فنجد أن القصة قد ركزت فى بنائها على أحداث غامضة، وخوارق رهيبة تَنْبَهِمُ وجوه الرأى فيها على كل مفكر، وإن كان موسى كليم الله عز وجل.

ولقد كان من أثر ذلك أن جاءت القصة مبهمة أعظم الإبهام، غامضة أشد الغموض، ولولا أن الأحداث الغامضة فيها قد فسرت فى الختام لظل الجو الداخلى لها مشحونًا بالأسرار، ملتفًا بالغموض والضباب.

ونلحظ من التأمل فى الأحداث : أن الخوارق الرهيبة قد تجلت بصورة أكثر فى القسم الثانى من القصة (أى بعد لقاء موسى والخضر) أما فى القسم الأول فلم تكن هناك إلا خارقة واحدة تتمثل فى عودة الحوت المشوى المملح إلى الحياة وإلى اتخاذه سبيله فى البحر سربا.

ولقد أعتمدت القصة فى عرض أحداثها المتلاحقة المتتابعة على طريقة السرد وطريقة الحوار معًا، لكن عنصر الحوار الجذاب المفصح عن المشاعر والخلجات هو الغالب عليها.

ونرى الحوار فى البدء يدور بين موسى وفتاه، ثم بعد أن يؤدى الفتى دوره، ويختفى من مسرح الأحداث يدور الحوار ويحتدم بين أهم شخصيتين فى القصة وهما موسى والخضر عليهما السلام.

وحين نتأمل هاتين الشخصيتين الأساسيتين فى القصة نجد أنهما تصوران اتساع الهوة المنفرجة بين عالم الغيب وعالم الشهادة، فسيدنا موسى يقف وراء أسوار المحدود المشاهد، أما سيدنا الخضر فيتخطى الأسوار المحدودة إلى فضاء اللانهائية الرحيب، ليرى ما لا يراه الناظرون.

ولقد ظهر سيدنا موسى -ومعه فتاه يوشع بن نون- فى بداية القصة، أما الخضر فقد ظهر بعد ذلك، حيث أخذ مكان البطولة جميعًا، وفى ذلك دلالة على أن هذه القصة من القصص التى تظهر فيه الشخصيات شيئًا فشيئًا بتتابع.

ويسترعى انتباهنا : أن القرآن الكريم لم يذكر أسماء الشخصيات الواردة فى القصة -باستثناء موسى عليه السلام- وهذه ميزة كبرى من مزايا القص القرآنى، فإن أهم شىء هو العبرة والمغزى مهما اختلفت وتنوعت الشخصيات، ومن هنا نستخلص أن القرآن الكريم قد سبق إلى ذلك اللون القصصى المسمى عند النقاد المعاصرين (بالقصة ذات التوجيه المعنوى) وهى التى تتركز حول مغزى معين، وتعرض بالقدر الذى يبلغ هذا المغزى، ويغفل فيها تحديد شخصيات الأبطال.

ويلحظ الدارس للقصة أنها لم تحدد التاريخ الذى وقعت فيه أحداثها، من حياة سيدنا موسى عليه السلام : هل كان ذلك وهو فى مصر قبل خروجه ببنى إسرائيل، أم كان ذلك بعد خروجه بهم عنها ؟ ومتى هذا الخروج قبل أن يذهب بهم إلى الأرض المقدسة أم بعد ما ذهب بهم إليها، فوقفوا حيالها لا يدخلون، لأن فيها قومًا جبارين ؟ أم بعد ذهابهم فى التيه مفرقين مبددين ؟

كذلك يلحظ الدارس أن القصة لم تحدد المكان الذى وقعت فيه أحداثها إلا بأنه (مجمع البحرين) وبأن (مجمع البحرين) هذا عند الصخرة التى أوى إليها موسى وفتاه، واتخذ عندها الحوت سبيله فى البحر سربا. ولكن أين كانت الصخرة هذه ؟ وأين كان مجمع البحرين ذاك ؟ لا ندرى.

ومعنى هذا : أن القرآن الكريم قد حدد مكان هذه القصة و لم يحددها، لحكمة خاصة تستوجب أن نقف عند نصوص القصة كما وردت فى كتاب الله عز وجل، ولا نقلد أولئك الذين راحوا يتفننون فى النص على هذا المكان، فزعم بعضهم أنه ملتقى بحر فارس مما يلى المشرق وبحر الروم مما يلى المغرب، وزعم آخرون أنه فى أقصى بلاد المغرب عند طنجة ... إلخ.

فكل هذه المزاعم وأمثالها من باب الحدس والتخمين، فضلاً عما بينها من تناقض وتضارب، وفضلاً عن أنها تصرفنا عما فى لفظة (مجمع البحرين) من معنى إشارى كريم زائد عن المعنى الأصلى لها، فهى تشير إلى حقيقة العبد الذى جمع الله فيه بحر الحقيقة -وهو الملح الأجاج الذى لم يقو على الشرب منه أحد إلا إذا تصفى من ملحه، أو مزج بماء النهر العذب الفرات، وهو الشريعة السائغة لجميع الناس، والتى لم يختلف عليها أحد لملاءمتها للعقل والعادة والعرف: والعبد الكامل قد مزج الله له البحرين، ليتناول منهما ما يحيى به كل الحقائق التى خلق منها، من جسم وحس، وعقل وروح، وقلب وحس. وهذا العبد الصالح يعطى من شرابه هذا من كان على شاكلته، ومن كان يريد الحياة الكاملة لجميع قواه ومعالمه.

ومهما يكن من أمر هذا المكان، فإن القصة قد اكتفت بالإشارة فى مطلعها إلى أن سيدنا موسى عليه السلام قد قرر أمرًا مفاجئًا حين قال لفتاه : أنه سيمضى حقبًا ومسافات حتى يصل إلى هذا المكان المسمى (مجمع البحرين).

ونلحظ أن القصة لم تذكر لنا فى البدء سوى هذا، ثم نفاجأ بعد سطور من بدئها أن (مجمع البحرين) هذا كائن عند الصخرة. كذلك نلحظ أن القصة لم تذكر لنا فى البدء سر ذهاب موسى إلى (مجمع البحرين) وإصراره على الوصول إليه، لكننا نفاجأ -بعد سطور من بدئها كذلك- بهذا السر، حين يلتقى موسى بالخضر، ويطلب منه أن يتبعه ليتعلم منه مما علمه الله رشدا.

فإذا كان النقاد اليوم يقولون : (إن عنصر المفاجأة فى القصة هو مصدر الجاذبية والتشويق) فها هو ذا القرآن الكريم يسبقهم إلى العناية التامة بهذا العنصر، فنحن نجد من تأملنا للجو الخارجي والداخلى لهذه القصة أن هذا العنصر يشيع فيها شيوعًا يكاد يكون تامًا، حتى لتحوطها المفاجآت من مطلعها إلى نهايتها، بل إن المفاجأة قد أعلنت عن نفسها قبل أن يلتقى التلميذ والأستاذ لأن موسى فوجئ بأنه -وهو كليم الله- لا يبلغ مبلغ بشر سواه فى العلم والمعرفة والاستبصار.

ومن هنا بادر إلى البحث عن الخضر، وما درى أنه سيتعرض (هو وقارئ القصة بالطبع) لمفاجآت أخرى، تصبح معها المفاجأة الأولى كلا شيء، وأى مفاجأة أكبر من أن يعمد الخضر إلى خرق السفينة لمساكين يعملون فى البحر، وإلى قتل نفس زكية حرم الله قتلها بدون ذنب وإلى بناء جدار بدون أجر فى قرية سائر أهلها بخلاء أبوا أن يضيفوهما.

إن قارئ هذه القصة أو سامعها لا يستطيع أن يأخذ أنفاسه مرتاحًا بعض الراحة بعد أن يبتدئها، وإنما يحس بدافع يخلق عنده ألوانًا شتى من التشويق الرائع، ويسوق نفسه إلى التطلع السريع لحل ما تضمنته القصة من مفاجآت متوالية، وألغاز خارقة، وما يزال كذلك حتى يفاجأ بما فوجئ به سيدنا موسى نفسه حين قال له الخضر : (هذا فراق بينى وبينك)، وعندئذ يشعر القارئ أن

هذا البطل قد انتهى دوره، وأن القصة قد لوحت بقرب ختام، وأن القرآن الكريم قد احتوى على قصة محتشدة بالصراع والحركة والمفاجآت والأحداث، فضلاً عما فيها من إعجاز التصوير، وجلال التعبير، وروعة الأداء، وكمال الأحكام، وسمو المضمون، ثم روعة الرمز إلى حقيقة القدر الذى يسيطر على الكون بتدبيره الخاص وإرادته العلياء وقدرته الخارقة المطلقة.

وهكذا يتضح لنا من خلال التحليل الأدبى لهذه القصة : اننا أمام قصة قرآنية عظيمة، تعد -بحق- مثالاً رائعًا لضرب من ضروب القصص فى القرآن الكريم.

هذا وقد زعم الدكتور نجيب البهبيتى فى كتابه (المعلقة العربية الأولى): أن موسى فى هذه القصة ليس موسى بن عمران الذى أرسله الله إلى فرعون، وإنما هو موسى بن ميشا ..

وهذا زعم يدحضه دليل من السنة النبوية الصحيحة سبق ذكره عقب الآيات المصورة للقصة، كذلك يدحضه دليل من التاريخ، ودليل من القرآن الكريم ذاته.

أما الدليل التاريخى، فقد قال أهل العلم بالتاريخ : (لما مات يعقوب ويوسف عليهما السلام، وآل الأمر إلى الأسباط كثروا ونموا وظهر فيهم ملوك، فغيروا سيرتهم، وأفسدوا فى الأرض، وفشا فيهم السحر والكهانة، فبعث الله تعالى إليهم موسى بن ميشا بن يوسف عليه السلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده وأداء أوامره وإقامة سنته وذلك قبل مولد موسى بن عمران بمائتى سنة).

وأضاف أهل العلم بالتاريخ : (أن موسى بن ميشا يسمى موسى الأول وليس هو صاحب الخضر عليه السلام، وإنما الصاحب هو موسى الثانى.

وأما الدليل القرآنى، فنحن إذ ننظر إلى قصة موسى مع الخضر نجد فيها

ما يؤكد أن موسى -هنا- هو موسى بن عمران الذى تحدث عنه القرآن الكريم فى مواضع عديدة، فنحن نجد سيدنا موسى فى هذه القصة يعد الخضر بالصبر وعدم السؤال عن شيء حتى يحدث له الخضر منه ذكرًا، ولكنه حين يرى الخضر يخرج السفينة ينسى ذلك كله أمام هذا التصرف العجيب الذى لا مبرر له فى نظر منطقه العقلى، ويندفع مستغربًا غير صابر على فعلة الرجل، ثم يندفع مستنكرًا حين يراه يقتل الغلام، ومعاتبًا حين يراه يبنى الجدار دون مقابل فى قرية أهلها بخلاء.

ومعنى هذا : أن موسى فى هذه القصة ذو طبيعة انفعالية اندفاعية تغضب للحق، وتلك الطبيعة هى ذاتها طبيعة موسى بن عمران فى بقية ما قصه الله عنه فى القرآن الكريم، وكما تظهر من تصرفاته فى أغلب أدوار حياته، مثل : وكزه الرجل المصرى فى اندفاعة من اندفاعاته، ومثل سرعة انفعالة حينما علم أن قومه عبدوا العجل فألقى ألواح التوراة، وأخذ برأس أخيه يجره إليه .. وهذه الطبيعة لم يحدثنا التاريخ بمثلها عن موسى بن ميشا.

كذلك فإن هذه الأحداث التى فعلها الخضر كانت من بين ألف مسألة أعدها الخضر -بأمر الله- لموسى بن عمران، مما جرى عليه من أول ما ولد إلى زمان اجتماعه به، فإن حدث خرق السفينة الذى ظاهره الهلاك وباطنه النجاة من يد الملك الغاصب الذى كان يأخذ كل سفينة غضبًا، إنما كان فى مقابلة التابوت الذى أطبق على سيدنا موسى فى اليم، فظاهره الهلاك وباطنه النجاة من فرعون كذلك فإن أول ما ابتلى الله به موسى قتله القبطى بما ألهمه الله ووفقه له فى سره وإن لم يعلم ذلك، ولهذا أراه الخضر قتل الغلام، فأنكر عليه قتله، ولم يتذكر قتله القبطى .. وقد أراه الخضر إقامة الجدار من غير أجر، فعاتبه على ذلك، ولم يتذكر سقايته من غير أجر لبنتى شعيب عليه السلام.

فهذه الأحداث الموسوية الخضرية تؤكد أن موسى المذكور في سائر المواضع القرآنية التي تناولته إنما هو موسى بن عمران ليس غير.

وقد أشار الشيخ محيي الدين بن العربي إلى هذا المعنى الدقيق في إحدى موشحاته، فقال:

**أخرق سفين الحسن يا نائم**

**واقتل غلامًا إنك الحاكم**

**ولا تكن للحائط الهادم**

# خطبة الرسول ﷺ فى حجة الوداع

قال رسول الله ﷺ : «الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

أوصيكم -عباد الله- بتقوى الله، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير.

أما بعد أيها الناس !! اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا.

أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها.

إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب[1]، وإن مآثر الجاهلية موضوعة، غير السدانة والسقاية[2] والعمد قود[3]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

---

(1) يقول ابن هشام فى السيرة النبوية : وكان مسترضعًا فى بنى ليث. فقتلته هذيل. فهو أول ما أبدأبه من دماء الجاهلية.

(2) السدانة : خدمة الكعبة، والسقاية : سقاية الحجاج.

(3) العمد : القتل العمد، والقود : قتل القاتل بمن قتل.

أيها الناس : «إنما النسيء[1] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله».

إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاث متواليات وواحد فرد. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان[2] ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس ! إن لنسائكم عليكم حقًا، ولكم عليهن حق، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح. فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وإنما النساء عندكم عوان[3] لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرًا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده : كتاب الله وسنتى، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد.

---

[1] النسيء: شهر المحرم.. كانوا يحرمونه عامًا ويحلونه عامًا آخر إن أرادوا الإغارة فيقولون إنه بعد شهر صفر.

[2] فى رواية ابن هشام عن ابن إسحاق "ورجب مضر" وقد قال النبى ﷺ ذلك كما ورد فى هامش "السيرة النبوية" لأن ربيعة كانت تحرم شهر رمضان وتسميه رجباء من رجبت الرجل ورجبته. إذا عظمته. فبين عليه السلام أنه رجب مضر لا رجب ربيعة.

[3] عوان : أسيرات أى عندكم بمنزلة الأسيرات.

أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد. كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد، قالوا : نعم، قال : فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس : إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا تجوز وصية لوارث فى أكثر من الثلث. والولد للفراش وللعاهر الحجر[1].

من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[2].

---

[1] للفراش : أى لصاحبه، وللعاهر أى أن هذا مقضى به رغم أنفها.

[2] فى رواية ابن هشام جاء فى آخر الخطبة هذا النص :

أيها الناس : اسمعوا قولى واعقلوا تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس فلا تظلمن أنفسكم ... اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد

## الدراسة والتحليل

### أ – نظرات فى مضمون الخطبة :

فى موقف تاريخى خالد، وفى مشهد مهيب رائع، وفى يوم من أيام الله المحرمة، وفى ساحة عرفات المطهرة، وفى حجة البلاغ أو حجة الوداع، ركب رسول الله ﷺ ناقته القصواء، وهتف فى الجموع الخاشعة التى تحيط به، يبلغ الناس وحى الله، ويلقى إليهم دستور الحياة، فى آخر لقاء مع أضخم حشد من جموع المؤمنين، فقد حرص -صلوات الله وسلامه عليه- على أن يوصيهم وصيته الجامعة، فلعله لا يلقاهم بعد عامه هذا ! ولعله لا يقف بينهم بعد موقفه هذا ! فنادى فيهم آمرًا بالبر والمعروف، داعيًا إلى كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة، ناهيًا عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظهم لعلهم يذكرون، وكان الذين استمعوا لهذه الخطبة الجامعة نحو مائة ألف مسلم تجمعوا على شكل مؤتمر موسع ليسمعوا من قائدهم ومعلمهم ورسولهم.

وفى الحق أن الرسول الكريم لم يكن يخطب يومها فوق مجرد ناقة، أو على ظهر بعير، ولم يكن يقف فى رقعة من الأرض محدودة، أو بين جموع من الناس معدودة، وإنما كان يخطب من فوق أعلى وأعظم منبر، تهتز أعواده بأبلغ وأجمع كلمات يلقنها الرسول الضمير الإنسانى، ويصبها فى سمع الزمن، ويلقيها فى فم الدنيا، لتطوف أرجاء الأرض هادية داعية إلى الحق وإلى صراط مستقيم.

وكان صلوات الله وسلامه عليه حريصًا على أن تصل كلماته إلى كل سمع وتمس كل قلب، فكان يستعين برجل من صحابته هو ربيعة بن أمية بن خلف فكان يصرخ فى الناس ويقول يقول رسول الله، حتى تذاع الخطبة فى أرجاء الوادى الفسيح فيقول الرسول له : قل لهم أيها الناس ... إن رسول الله

-صلى الله عليه وسلم- يقول لكم : هل تدرون أى شهر هذا ؟ فيقولون : الشهر الحرام أى بلد هذا ؟ فيقولون : البلد الحرام ... أى يوم هذا ؟ فيقولون : يوم الحج الأكبر. فيقول مؤكدًا حرمات الله : «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا».

ولقد جمعت هذه الخطبة الجامعة أصول الدين، وقواعد البر، ومنهج السلوك، ونظمت علاقة الإنسان بربه، ونفسه، والمجتمع الذى يعيش فيه ... إنها أعلنت الإنسان قبل أن تعرف دساتير الأرض ما هى حقوق الإنسان .. ؟ إنها رسمت الطريق، وأوضحت المعالم، وبينت حدود الله فقد ظلم نفسه ! و لم تكن تلك القيم بعيدة عن أذهان الناس فقد جاء بها القرآن وطبقها الرسول فى المجتمع المسلم، ولكن ركزعليها الرسول قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى لتظل ساطعة متوهجة لا تهمل ولا تنسى.

ولنقترب الآن من هذا التراث الغالى، لنقف مع مبادئه وقفات تكشف لنا عن عظمة الإسلام ونبى الإسلام. تلك المبادئ هى :

١ - الحمد لله : أقوى أسباب القوة، وأعظم وسائل الاستعانة به والتوكل عليه. والتوبة من الذنوب، والتعوذ من شرور النفوس وسيئات العمل، تخليص من معوقات الخير، وإزاحة للعقبات التى تعترض طريق السائر إلى الله.

٢- الوصية بتقوى الله والحث على طاعته، وهو عماد الحياة الكريمة، وأقوى العدة على العدو، وأعظم المكيدة فى الحرب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ محمد : ٧. ويقول ﷺ «إن الله عز و جل يغار، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله عليه» رواه البخارى ومسلم.

٣- حث الناس على أن يتدبروا ما يلقى إليهم، وأن يعقلوه، ويفتحوا له قلوبهم وعقولهم، فقد أخبرهم النبى ﷺ أنه قد لا يلقاهم بعد عامه هذا وفى موقفه هذا، مما يجذب انتباههم، ويوقظ وعيهم، حتى يستوعبوا النصيحة، ويحرصوا عليها أشد الحرص، فلقد أحس ﷺ باقتراب أجله فأحب ألا يلقى ربه إلا وقد أدى حق البلاغ لهذه الأمة الكريمة التى صنعها على عين الله حتى تمتد بها مسيرتها الحضارية على صراط الله العزيز الحميد.

٤- حرمة الدماء والأموال، فكل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، ولقد نهى الإسلام أشد النهى عن قتل النفس بغير حق وجعل جزاء القاتل الخلود فى النار قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ النساء: ٩٣، والقتل جريمة نكراء، يهتز لها العرش، وتضطرب منها الدنيا ففى الحديث الشريف «لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم» رواه النسائى والترمذى والقاتل لاحظ له من رحمة الله ومغفرته: «لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا» رواه البخارى وأبو داود «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركًا أو مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا» رواه أبو داود النسائى. والدماء أول قضية يفصل فيها القضاء، بين يدى رب الأرض والسماء يقول ﷺ: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء» رواه الخمسة إلا أبو داود.

وكما حرم الإسلام قتل النفس بغير حق، حرم أيضًا اغتصاب الحقوق، وأكل أموال الناس بالباطل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ النساء: ٢٩.

وفى الحديث الذى رواه الشيخان : «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين»، ويقول عليه الصلاة والسلام : «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة» فقال : وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله ؟ فقال : «وإن كان قضيبًا من أراك» رواه مسلم ! وبهذا أعلن الرسول الكريم قداسة الحقوق الإنسانية، وأرسى دعائم أروع حضارة عرفها التاريخ.

٥- لقاء الله والسؤال عن الأعمال يوم القيامة، مما يدعو إلى محاسبة النفس والاستعداد للعرض على الله، والإقبال على الطاعة، ومجانبة السيئات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ الحشر : ١٨، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ المجادلة : ٦، وفى الحديث الشريف : «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» رواه الترمذى.

٦- تبليغ الرسالة والإشهاد على ذلك من الله ومن الحاضرين وفى إحدى الروايات أن الرسول ﷺ كان إذا قال: ألا هل بلغتة ؟ اللهم فاشهد كان يشير بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس أى يردها إليهم، ليؤكد هذه الشهادة وأنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ المائدة : ٦٧.

٧- وجوب أداء الأمانة وهي كل واجب على الإنسان نحو ربه أو نفسه أو الناس وتشمل كل نعمة أنعم الله بها على عبده، فعليه أن يحسن استعمالها في مرضاة الله ... إنها الدين كله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ النساء : ٥٨، وعن أنس -رضي الله عنه- قال : «ما خطبنا رسول الله إلا قال : لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له» رواه أحمد.

٨- إهدار الربا والثأر وهما من أسباب الدمار، واضطراب الأمن، وقد حرم الله الربا بجميع صوره ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ البقرة : ٢٧٥، ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ البقرة : ٢٧٦، وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال : «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله» رواه مسلم. زاد الترمذي وغيره «وشاهديه وكاتبه» والأخذ بالثأر يفضي إلى الإخلال بالأمن، ويؤدي إلى الفوضى في القصاص، حيث يترتب عليه قتل الأبرياء، وقد قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ١٧٩.

وكل من حرض على الأخذ بالثأر، أو أعان على القتل بالإرشاد أو إحضار آلة القتل، أو التستر على القاتل، فحكمه حكم القاتل في القصاص في الدنيا، والعقاب في الآخرة، يقول ﷺ : «لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن، لأكبهم الله في النار» رواه الترمذي. وقد أهدر الرسول ﷺ ربا عمه ودم ابن عمه لأن ذلك أدعى إلى امتثال أمره، حيث بدأ

بنفسه وأهله فى تطبيق مبادئ الإسلام وهكذا كان الأنبياء جميعًا، يسبقون الناس إلى امتثال ما يأمرون به، واجتناب ما ينهون عنه يقول شعيب عليه الصلاة والسلام : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هود : ٨٨.

وهكذا أخبر الرسول ﷺ أن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله أى مردود وباطل وكان العباس من أغنى التجار وأوفرهم مالاً وأوسعهم تجارة، كما أخبر أن كل دم في الجاهلية موضوع، وأن أول دم يضعه دم ابن عمه عامر بن ربيعة، فقد كان مسترضعًا في بني ليث فقتلته هذيل وهو صغير يحبو أمام البيوت وهى فى حرب مع بنى سعد، أصابه حجر فقتله، أو أصابه سهم لا يعرف راميه فقتل.

٩- القضاء على مآثر الجاهلية : أعلن الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- أن مآثر الجاهلية موضوعة وهى المآثر الضارة، فقد جاء في رواية أخرى: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع» أى لا قيمة له كالشيء الذى يداس عليه وذلك كالعدوى والطيرة والهامة وصفر .. إلخ. أما المآثر النافعة، فقد أقرها الإسلام وحافظ عليها، وذلك مثل السدانة وهى خدمة الكعبة، والسقاية والمراد بها سقاية الحاج.

١٠- حكم القتل العمد والخطأ : فالعمد أن يقصد من يفعله آدميًا معصومًا فيقتله بما يغلب على الظن موته به وفيه القود وهو القصاص ويجوز لولى الجناية قبول الدية. والخطأ أن يفعل ما يجوز له فعله مثل أن يرمى ما يظنه صيدا أو يرمى غرضًا فيصيب آدميًا لم يقصده بالقتل وحكمه كما

قال الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ النساء : ٩٢.

وشبه العمد أن يقصده بما لا يقتل غالبًا كمن ضرب غيره بسوط أو عصا أو حجر صغير أو لكزة فى غير مقتل. وفيه الدية وهى مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية، وتدفع الدية من نوع ما يملكه دافعها لحديث أبى داود عن جابر : «فرض رسول الله ﷺ فى الدية على أهل الإبل مائة من الإبل وعلى أهل البقر مائتى بقرة وعلى أهل الشام ألفى شاة».

١١- انتهاء عبادة الشيطان بأرض الوحى : فقد دالت دولة الوثنية بظهور الإسلام، وبطل عمل الشيطان فى دعوة الناس إلى طاعته، ولم يبق أمام الشيطان إلا أمور يستسهلها الناس وهى خطيرة، وهى التحريض على الشقاق، وإلقاء الفتنة لبث الخلاف فى صفوف الموحدين فعليهم أن يحذروه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة : ٢٠٨، وعليهم أن يعتصموا بالله وأن يستمسكوا بالوحدة فهى قوة وعزة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران : ١٠٣، ألا ما أكثر قوى البشر وعملاء الشيطان التى تتربص بالمسلمين الدوائر، تريد أن تحطم دينهم وتقوض حضارتهم، فعلينا أن نسد الطريق على مؤامرات الأعداء ولا نجعل للشيطان مكانًا بيننا.

١٢- تحريم التلاعب بالأشهر الحرم، ووجوب احترام الزمن، بأن يكون على هيئته يوم خلق الله السموات والأرض. وقد حرم الله النسيء وهو تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر وذلك أن العرب في الجاهلية كانوا إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرًا آخر، وهكذا حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها، وكانوا يعتبرون في التحريم مجرد العدد لا خصوصية الأشهر المعلومة. والنسيء زيادة في الكفر أي كفر آخر ضموه إلى كفرهم ليواطئوا أي يوافقوا عدة الأشهر الأربعة المحرمة.

١٣- حقوق النساء وواجباتهن، وتأديبهن عند النشوز، والوصية بهن لضعفهن: وفي تقرير هذه الحقوق والواجبات بين الزوجين حفظ لكيان الأسرة، والأسرة لبنة في بناء المجتمع، يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها، فعلى المرأة أن تطيع زوجها، وتحافظ على ماله وعرضه، فلا تدخل بيته أحدًا إلا بإذنه وأن تلبس لبسًا من العفة وتصون نفسها من مواطن الشبهات فإن خالفت هذا المنهج الإسلامي فقد أذن الله في تأديبها وذلك بالهجر في المضجع أو ضربها ضربًا غير مبرح أي غير مؤثر ولا شاق، وإن أطاعت فلها حقها بتوفير ما تحتاجه من طعام وكسوة ونفقة بالمعروف .. واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عوان عندكم.. أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء، وبذلك أكد الرسول الكريم حقوق المرأة، ورد عليها كرامتها لأنها لقيت من قبله ضروبًا من العنت وألوانًا من المهانة ..!

١٤- ميراث رسول الله ﷺ : لقد ترك فينا كتاب الله وسنة نبيه، محجة بيضاء، وأمرًا بينًا، وصراطًا مستقيمًا لا يزيغ عنه إلا هالك ﴿اهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة: ٦، ٧.

١٥- المسلم أخو المسلم : فلا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، ولا يأخذ منه شيئًا إلا عن طيب نفس. يقول ﷺ : «لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره التقوى ههنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» رواه مسلم. وبهذا أعلن رسول الإسلام الحقوق الإنسانية المقدسة قبل أن تولد المنظمات الدولية.

١٦- خطر الانتكاس والعودة إلى الكفر بالتناحر والتضارب فقد تركنا رسول الله ﷺ أمة واحدة، ولكن مؤامرات الأعداء ودسائس الاستعمار تعمل على التفريق بيننا، جريًا على دستورهم "فرق تسد" والرسول الكريم يحذرنا من أن نعود بعده متباعدين يضرب بعضنا رقاب بعض فاجتماع الكلمة وتوحيد الصفوف هما الوسيلة لبقاء الأمة وحفظ كيانها والاختلاف طريق الضعف والانهيار، يقول ﷺ : «لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض» رواه الترمذى. ويقول : «من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية» رواه البخارى.

١٧- وحدانية الألوهية، ووحدة الأصل لجميع الناس : فإن للناس ربًا واحدًا، وهم مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وأوطانهم يرجعون فى النهاية إلى

أصل واحد هو آدم أبو البشر وآدم من تراب وهذا يدعو الناس إلى أن يعيشوا على هذه الأرض أخوة متعاونين لا متعادين ولا تفاضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ الحجرات : ١٣.

١٨- تحديد المواريث وحكم الوصية : حيث بين الرسول الكريم أن الله تعالى قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ النساء : ١١، ولقد بينت الآيات الواردة في سورة النساء نصيب كل مستحق في الميراث، وقد فرض الإسلام العمل بهذه الأنصباء المقررة في كتاب الله وسنة الرسول، يقول النبي ﷺ : «أقسموا المال بين أهل الفرائض على كتاب الله تعالى» رواه مسلم وأبو داود. وتفضيل بعض الأولاد على بعض، وإعطاء الذكور دون الإناث، تفرقة ظالمة، وتصرف حرام، لأنه مدعاة للعداوة والحقد الدائمين وقد قال ﷺ: «سووا بين أولادكم في العطية ولو كنت مفضلاً أحدًا لفضلت النساء» رواه الطبراني والبيهقي. وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : انطلق بي أبي يحملني إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله، أشهد أني قد نحلت النعمان كذا وكذا من مالي فقال : «أكل بنيك قد نحلت مثل هذا ؟ قال : لا، قال : فأشهد على هذا غيري، ثم قال : أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء، قال : بلى، قال: فلا إذًا» وفي رواية «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم» رواه الخمسة.

وبين الرسول أيضًا أنه لا وصية لوارث، وهذا محمول على عدم إجازة الورثة ذلك، أما إذا أجاز باقى الورثة العصبة فهى صحيحة، لحديث الدارقطنى «لا وصية لوارث إلا أن يجيز الورثة» والجمهور على هذا، وقال بعضهم : لا تصح وإن أجاز باقيهم، لأن المنع فيها حق الشرع فلا يملكونه ولا تجوز وصية لغير وارث فى أكثر من الثلث لقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص : «الثلث والثلث كثير إنك إن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» رواه مسلم وأبو داود والنسائى. أى أن المشروع فى الوصية الثلث وهو كثير، بل النقص عنه مطلوب، فإن ترك الورثة أغنياء، خير من تركهم فقراء يسألون الناس ويمدون أكفهم إليهم يطلبون الصدقة ....!

١٩- حكم ولد الزنا ولمن ينسب ....! فالزنا جريمة بشعة، وفاحشة من أكبر الكبائر : ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ الإسراء : ٣٢، وحكم الزانى المحصن الرجم حتى الموت وغير المحصن جلد مائة وتغريب عام أى نفيه. والثمرة المحرمة الناتجة عن جريمة الزنا، لا تنسب إلى الزانى، وإنما ينسب الولد لأمه كما قال الرسول ﷺ : «الولد للفراش وللعاهر الحجر» أى ولد الزنا لأمه وللعاهر أى الزانى الحجر أى الخيبة والحرمان فلا شىء له، والعرب تقول فى ذلك : له الحجر، وبفيه التراب أى لا شىء له !

٢٠- الانتساب إلى غير نسب صحيح أو إلى موالى غير حقيقتين موجب للعنة الله تعالى : فالإسلام يحافظ على صحة الأنساب ويأمر بمراعاتها إذ على الأنساب تقوم القرابة، وتترتب أحكام كثيرة، فى النكاح والميراث وغير ذلك، وضياع الأنساب أو اختلاطها يؤدى إلى الفوضى ويفضى إلى

ضياع الحقوق. الشرع يفرض إلحاق كل ولد بأبيه ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ الأحزاب : ٥، إنه عدل للوالد الذى نشأ الولد منه وعدل للولد الذى يحمل اسم أبيه وخصائصه وخصائص آبائه وأجداده وعدل للحق فى ذاته الذى يضع كل شيء فى مكانه. ويفرض الشرع أيضًا احترام الولاء، ويوجب إلحاق كل معتق بمولاه، والولاء شرعًا : عصوبة سببها نعمة المعتق على عتيقه ويرث به المعتق وعصبته المتعصبون بأنفسهم ففى الحديث الشريف : «الولاء لمن أعطى الورق وولى النعمة» رواه الخمسة. أى الولاء لمن دفع الورق، وهى الدراهم المضروبة واشترى بها الرقيق وأولاه نعمة الإعتاق. فمن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً.

إن فى هذه المبادئ العشرين التى تضمنتها الخطبة الجامعة فى حجة الوداع، ما يوضح الحقوق والواجبات، وما يرسم منهاج السلوك الصحيح ويضع أساس الحياة الكريمة، مما لو عمل به المسلمون لكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

هذه هى معانى تلك الخطبة الجامعة، وتلك أهم المبادئ التى احتوتها، وواضح أنها تدور فى إطار إرساء الفضائل الإنسانية، والقيم الإسلامية، ليعم الخير البشرية ولتسود المحبة بين الناس، وليعيش المسلمون حياة طيبة فى دنياهم ولينالوا الثواب العظيم فى آخرتهم.

* * *

## ب- الألفاظ والأساليب فى الخطبة :

من القضايا المقررة الثابتة التى لا مراء فيها، أن ألفاظ الرسول ﷺ، فى حديثه وخطبه، قد برئت من الأغراب والتعقيد، والاستكراه فهى ألفاظ واضحة سهلة مألوفة لها بهاء ورونق، تعمر بها القلوب، وتنشرح لها الصدور، وترتاح إليها الأسماع والأفئدة.

وبدراسة خطبة الرسول ﷺ -التى سبق عرضها- من ناحية ألفاظها، يتضح ما سبق ذكره، كما يتضح أيضًا أن الرسول ﷺ لم يستخدم السجع - وما جاء منه جاء عفوًا- بل كان ينفر منه بسبب استخدام الكهان له فى الجاهلية ولذلك صد عنه كما صد عنه الخلفاء الراشدون، رضوان الله عليهم.

وقد وضع الرسول ﷺ بأسلوب خطابته، أسلوبًا اتبعه الخطباء من بعده.

فهى تبدأ بالحمد لله، والثناء عليه، ثم بإعلان التوبة والاستغفار والإقرار بالوحدانية للواحد القهار، والتصديق بنبوة المصطفى المختار سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يشرع فى الموضوع الذى أراد أن يتحدث عنه.

ويلاحظ على أسلوب الخطبة الجامعة -التى نحن بصددها- كثرة استخدام صيغة أيها الناس ومرجع ذلك إلى عموم رسالة النبى محمد ﷺ، فهو مرسل إلى الناس عامة، مذ بعث وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ولذلك ختم ﷺ خطبته ووصيته بقوله : فليبلغ الشاهد (الحاضر المستمع) الغائب عن الموقف، أو الذى لم يولد بعد.

كما أفادت هذه الصيغة -أيها الناس- صيغة النداء والخطاب جذب الانتباه، وإيقاظ الأسماع والعقول، وتهيئتها للقضايا التى أثارها الرسول ﷺ وذاك مظهر من مظاهر البلاغة فى هذه الخطبة.

كما يلاحظ أيضًا شيوع أسلوب التقرير والإيضاح، حتى يؤمن المستمع بصدق ما يقوله ﷺ، ويستقبل الحكم بيقين واقتناع، وذلك مشاهد فى قضية تحريم المال والدم، وتحريم النفس، وفى بيان حقوق كل من الرجل والمرأة فى الإسلام، وفى إعلان الأخوة بين المؤمنين والمساواة بينهم فى الحقوق والواجبات «إنما المؤمنون أخوة» إن ربكم واحد وأباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير، وليس لعربى على أعجمى فضل إلا بالتقوى.

هذا وقد سيطر الأسلوب الخبرى على أساليب الخطبة، ويرجع ذلك إلى أن جل هم الرسول ﷺ أن يقنع الناس بالحجة والبرهان، بما ساقه من قضايا فى ثنايا خطبته.

كما جاء الاستشهاد ببعض آى الذكر الحكيم -القرآن الكريم- على لسان رسول الله ﷺ وذلك فى قوله[1] ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ . . .﴾ الآية.

وفى قوله[2] : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . . .﴾ الآية.

وفى قوله[3] : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

كما استوحى الرسول ﷺ قوله تعالى[4] : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ . . .﴾ الآية.

---

[1] سورة التوبة : الآية ٣٧.

[2] سورة الحجرات : الآية ١٠.

[3] سورة الحجرات : الآية ١٣.

[4] سورة النساء : الآية ١١، ١٢.

وذلك فى قوله ﷺ : «إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث».

واستوحى أيضًا قوله تعالى[1] : ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

وقوله تعالى[2] : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾.

وذلك فى قوله ﷺ : «من ادعى إلى غير أبيه ...».

هذا والخطبة بأسلوبها التى ظهرت عليه، قد جمعت بين عنصرى الاستمالة والإقناع، وهما من سمات الخطبة الجيدة.

وقد تحققت الاستمالة فى الخطبة لاشتمالها على قصر الفقرات والتنوع بين الأساليب، فمنها ما يهدف إلى الإثارة والحث، أو التنبيه كالأساليب التى بدأت بالنداء والأمر «أيها الناس اسمعوا منى، ومنها ما يهدف إلى الإخبار، كما سيطر عليها جو عاطفى هدفه الإشفاق، والحرص على النجاة، وتحقيق الخير، كما تحقق الإقناع فى الخطبة بالتفصيل بعد العموم، والتوضيح بعد الإجمال.

ويبدو أن الرسول ﷺ كان يشعر بدنو أجله وقرب رحيله، ولذا بدأ بقوله : أيها الناس : اسمعوا منى أبين لكم فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا.

وكان يختم كل فقرة من فقرات خطبته، بقوله : ألا هل بلغت ؟ اللهم شهد.

وبقوله هذا، أراد ﷺ أن يبرئ ذمته، من الأمانة التى حملها الله له، ويعلن على الملأ أنه بلغ الرسالة، التى أمر بتبليغها، ألا هل بلغت اللهم اشهد.

---

[1] سورة الأحزاب : الآية ٤.

[2] سورة الأحزاب : الآية ٥.

وبعد: فهذه الخطبة بأسلوبها التى جاءت عليه، قد جمعت بين الموعظة الإسلامية، والتشريع لمنهج قويم، حيث عرض الرسول ﷺ على المسلمين أهم مبادئ دستور الحياة الإسلامية الصحيحة، موجزة، مركزة، قائمة على الكرامة والوحدة والتعاون، واحترام المرأة ومراعاة حقوقها ومحاربة الفساد، والبعد عن دسائس الشيطان.

كما أنها كسائر خطبه ﷺ- نموذج للبيان يقتبس الأديب من لفظه، ويجد البليغ فيه المثل الذى يحتذى ليصل بكلامه إلى غايته.

## عينية حسان بن ثابت

## قال رضى الله عنه مرتجلاً

يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته أمام وفد بنى تميم :

١- إنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِـهْرٍ وَإِخْوَتِهِمْ
قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً لِلنَّاسِ تُتَّبَعُ

٢- يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كانَتْ سَرِيرَتُهُ
تَقْوَى الإلهِ وَبِالأَمْرِ الَّذِى شَرَعُوا

٣- قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ
أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فى أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

٤- سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ
إنَّ الخَلاَئِقَ -فَاعْلَمْ- شَرُّهَا البِدَعُ

٥- لاَ يَرْقَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ
عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلاَ يُوهُونَ مَا رَقَعُوا

٦- إنْ كانَ فى النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ
فَكُلُّ سَبْقٍ لأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَعُ

٧- وَلا يَضِنُّونَ عَنْ مَوْلًى بِفَضْلِهِمُ
وَلاَ يُصِيبُهُمُ فى مَطْمَعٍ طَبَعُ

٨- لاَ يَجْهَلُونَ وَإنْ حَاوَلْتَ جَهْلَهُمُ
فى فَضْلِ أَحْلاَمِهِمْ عَنْ ذَاكَ مُتَّسَعُ

٩- أعِفَّـةٌ ذُكِـرَتْ فى الْوَحْـىِ عِفَّـتُهُـمْ

لا يَطْمَعُـونَ وَلا يُـزْرِى بِهِمْ طَمَعُ[١]

١٠- كَمْ مِـنْ صَدِيـقٍ لَهُمْ نَـالُوا كَرَامَتَهُ

وَمِنْ عَدُوٍّ عَلَيْـهِمْ جَاهِـدٍ جَدَعُـوا

١١- أعْطَـوْا نَبِـىَّ الْهُدَى وَالْبِرِّ طَاعَـتَهُمْ

فَما وَنَى نَصْرُهُمْ عَنْـهُ وَمَا نَزَعُـوا

١٢- إنْ قَالَ : سِيرُوا أجَدُّوا السَّيْرَ جَهْدَهُمُ

أوْ قَالَ : عُوجُوا عَلَيْنَا سَاعَةً رَبَعُوا

١٣- مَا زَالَ سَـيْرُهُمُ حَتَّى اسْـتَقَـادَ لَهُـمْ

أهْـلُ الصَّلِيبِ وَمَنْ كَـانَتْ لَهُمْ بِيَعُ[٢]

١٤- خُذْ مِنْهُمُ مَا أتَى عَفْوًا إذَا غَضِـبُـوا

وَلاَ يَكُنْ هَمُّـكَ الأمْرُ الَّـذِى مَنَعُوا

١٥- فَإنَّ فِى حَرْبِهِـمْ -فَـاتْرُكْ عَدَاوَتَهُمْ-

شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ الصَّابُ وَالسَّـلَعُ

١٦- نَسْمُـوا إذَا الحَرْبُ نَالَتْنَـا مَخَالِبُهَا

إذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أظْفَارِهَا خَشَـعُوا

١٧- لاَ فَخْـرَ إنْ هَـمْ أصَابُوا مِنْ عَدُوِّهِمُ

وَإنْ أُصِيبُوا فَلاَ خُـورٌ وَلاَ جُـزُعُ

---

[١] فى الديوان : "ولا يرديهم الطمع".

[٢] رواية الديوان : "ومن كانت له البيع".

١٨- كَأَنَّهُمْ فى الوَغَى وَالمَوْتُ مُكْتَنِعٌ

أُسْـدٌ ببيشَـةَ فى أرْسَاغِهَا فَدَعُ

١٩- إذَا نَصَبْنَا لِقَوْمٍ لا نَدِبُّ لَهُـمْ

كَمَا يَـدِبُّ إلى الْوَحْشِـيَّةِ الذَّرَعُ

٢٠- أكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شِيعَتُهُمْ

إذَا تَفَرَّقَـتِ الأَهْـوَاءُ وَالشِّيَـعُ

٢١- أهْدَى لَهُمْ مِدَحِى قَلْبٌ يُؤَازِرُهُ

فِيمَـا أَرَادَ لِسَـانٌ حَائِـكٌ صَنَعُ[1]

٢٢- فإنَّهُمْ أفْضَلُ الأحْيَـاءِ كُلِّهِمُ

إنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ القَوْلِ أوْ شَمَعُوا

---

[1] رواية الديوان : "فيما يحب لسان .." وفى البيان والتبيين (٣ : ٢٦٢) بتحقيق هارون : "فيما أحب".

# شرح الأبيات

**١- إن الذوائب من فهر وأخوتهم**

**قـــد بينـــوا سـنة للنـــاس تتبع**

**اللغة**: الذوائب جمع ذؤابة وهى الناصية، أو منتها من الـرأس، والمـراد: السادة والأعيان والعظماء، وفى الكلمة استعارة تصريحية... شبه فيهـا سـادة قريـش والأنصـار بـالذوائب، ويجـوز أن يكـون الأسـلوب مـن ألـوان التشـبيه الضمنى... إذا أريد بفهر كل قريش... وبأخوتهم كل الأنصـار، وكـانت مـن بيانية لا تبعيضية، وفهر : هو قريش، وهو فهر بن غالب بـن النضـر بـن كنانـة وأخوتهـم: هـم الأنصـار... كمـا سبق، والسـنة: الصـورة والسـيرة والطريقـة وحكم الله وأمره ونهيه، وتتبـع.. أى يتبعهـا النـاس ويدينـون بهـا، أو... هـى خليقـة وحريـة بـأن تتبـع.... لأنهـا حـق وهـدى وخـير. والمعنـى : أن سـادة المهاجرين والأنصار -وفيهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قـد أظهـروا للناس طريقة للخير ومنهجًا للصلاح والفلاح والهدى والنور.

**٢- يرضى بها كل من كانت سريرته**

**تقـــوى الإله وبالأمر الذى شـــرعوا**

**اللغة**: السريرة -كالسر-: ما يكتم عن الناس، وما يستكن فى الضمير والخالص من الإحساس والشعور والاتجاه، والتقوى: الحذر والخوف وهى اسـم من اتقى يتقى، وتقى يتقى تقى وتقيـة، وتقـاء واتقـاء، وشـرعوا: سنوا... أى لتنفيذها والأخذ بها، والعمل بمقتضاها.

**والمعنى**: أن كل من يخشى الله ويعمل علـى مرضاتـه، والتقـرب منـه: يرضى بهذا الدين الجديد، والمناهج التى شـرعها، وبينهـا رسـوله صلـوات الله وسلامه عليه، هو وصحابته الأبرار... مهاجروهم والأنصار.

**٣- قوم إذا حــاربوا ضـــروا عدوهـــم**

**أو حاولو النفع فى أشياعهم نفعوا**

**اللغة:** القوم: الجماعة من الرجال والنساء معًا، أو من الرجال خاصــة، أو يدخل فيهم النساء تبعًا، ولفظه مذكـر، وقـد يؤنـث... ويجمـع علـى أقـوام وجمع الجمع: أقاوم، وأقاويم، وحاربوا: عادوا، وفيه مجاز مرسل علاقته المسببة. والعروض الصديق... ويطلق على الواحـد والمثنـى والجمـع، والمذكـر والمؤنـث وقد يثنى ويجمع ويؤنث.... وهو من العدو.... بمعنى التجاوز ومنافـاة الالتئـام قال الراغب -فى مفرداته-: فتارة يعتبر بالقلب... فيقال لـه: العـداوة والمعـاداة وتارة بالمشى فيقال له: العدو، وتارة بـالاخلال بالعدالـة فـى المعاملـة... فيقـال له: العدوان والعدو، وحاولوا: راموا وطلبوا، والأشـياع: جمـع شـيعة، وهـى أتباع الرجل وأنصاره وفرقته، تطلق على المذكر والمؤنث... مفردًا أو مثنـى أو جمعًا، وغلبت على أتباع علـى - كـرم الله وجهـه- خاصـة... حتـى صـارت علمًا عليهم.

والمعنى: أن المهـاجرين والأنصـار لهـم أقــدار وموازيــن، ومكانــات ودرجات وهم عند العداوة أبطال صناديد، وعنـد الصداقـة لا ينسـون الأتبـاع والأشياع.

بل يقومون عنهم ولهم... بكل ما فيه خير أو نفع عميم.

**٤- ســجية تلك منهم غير محدثــة**

**إن الخلائق -فاعلم- شـرها البـدع**

**اللغة:** السجية: الغزيرة والجبلة... مأخوذة من سـجى: إذا سـكن ودام ومنه. ليل ساج، وطرف ساج... أى: فاتر، وبحر ساج... أى: ساكن الموج،

ومن المجاز: تسجية الميت. أى: تغطيته، وغير محدثة: بمعنى أنها تليدة فيهم غير جديدة... أى: إنها موروثة عن الآباء والأجداد منذ القدم.... والخلائق: جمع خليقة، وهى الطبيعة، والبدع: جمع بدعة، وهى الأشياء المستحدثة المخالفة للطبائع والفطر والأذواق السليمة.

**والمعنى**: أن شجاعتهم وبطولتهم وكرمهم ونجدتهم: أمور متأصلة فيهم ورثوها كابرا عن كابر، وسرت فى طبيعتهم وأمزجتهم... مسرى الدم فى عروقه ولاشك أن الطبائع الأصلية، والمكارم الفطرية، والسجايا الطبيعية خير من المحدثات الخارجة عن قانون الأخلاق العام، ودستور الحياة الطيبة.

**٥- لا يرقع الناس ما أوهــت أكفهــم**

**عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا**

**اللغة**: يرقع: مضارع رقع الثوب -من باب منع- إذا أصلحه بالرقاع.... كرقعه -بتشديد القاف-، وأوهت: خرقت وشققت،... من الوهى، وهو الشق فى الشىء... وهى -كوعى- وهى -كولى-: تخرق وانشق، والرواية التى أحفظها لهذا البيت: "لا يرفع... ورفعوا "بالفاء الموحدة ولا بأس بها، ومن معانى أوهت: أرخت رباطه، والمراد: أسقطت، والدفاع: الزحام فى شؤون الحياة وميادينها المختلفة.

**والمعنى**: أن هؤلاء المؤمنين الصادقين المخلصين يرفعون من أرادوا – ويضعون من أرادوا، ولا يستطيع الناس أن يرفعوا من وضعوه أو يخفضوا من رفعوه، فالكلمة لهم، والسبق لهم، والمكانة الأولى: هم أربابها وأصحابها فى كل مجال.

وعلى الروايتين "يرقع ويرفع": يعتبر الأسلوب من صور الاستعارة التمثيلية التى شبهت فيها حالة بحالة.

٦- إن كان فى الناس سباقون بعدهُمُ

فكــلُّ سَــبْقٍ لأدنى ســبقهم تَبَــعُ

**اللغة**: سباقون: جمع سباق، وهو صيغة مبالغة من سابق، وهـو المتقـدم من الناس، أو الفرس فى الحلبة، والأدنى: الأقـرب، والأقـل مسـافة، وتبـع: أى تابع.

والمعنى: ليس فى الوجود من يسبق هؤلاء الأكـارم، وليـس هنـاك مـن يتقدمهم فى ميادين الحياة، ولو حدث أن وجد سـابق مـن سـواهم فإنـه حتمًـا يكون تاليا لأقرب سابق منهم فى حلبة السباق، ولن يستطيع أحد التقدم عليهم بأية حال.

٧- ولا يضــنون عن مــولى بفضلهم

ولا يصيبــهم فى مطمــع طَبَــعُ

**اللغة**: يضنون: مضارع ضن: من بابى تعب وضرب.... أى : بخل وقال الفراء: سمعت ضننـت -بفتـح النـون- و لم أسمـع أضـن- بكسـر الضـاد- ولكن ثعلبا رواه عن يعقوب، فهو صحيـح، والمـولى: المـوالى والمنـاصر المحـالف والمطمع: ما يطمع فى تحقيقه وتحصيلـه مـن الأمـانى الطيبـة والآمـال المشـروعة وعن: بمعنى على، والطبع: الدنس والعيب والشين وفى الحديث الشريف نعـوذ بالله من طمع يهدى إلى طبع.. أى: يؤدى إلى شين ودنس.

وقال ثابت بن قطنة:

**لا خير فى طمع يدنى إلى طبع وغفة من قوام العيش تكفينى**[1]

**والمعنى**: أنهم يمدون يـد العون والمساعـدة والحمايـة... لأنصارهم

[1] الغفة: البلغة من العيش.

وحلفائهم ولا يبخلون عليهم بفضلهم... كما أنهم فى سبيل تحقيق آمالهم والحصول على أمانيهم لا يلجئون للطرق الخبيثة، ولا الأساليب الخسيسة ولا يرضون فى تصرفاتها دنسا ولا نجسا.

**٨- لا يجهلون وإن حاولت جهلهمُ**

**فى فضل أحلامهم عن ذاك مُتَّسَعُ**

**اللغة**: لا يجهلون: لا يتصرفون تصرفًا طائشًا، ولا يحمقون فى تعاملهم مع الناس، والأسلوب مجاز مرسل... علاقته السببية، فالمراد: آثار الجهل وحاولت: تعمدت وقصدت، والفضل: ضد النقص، والمراد: فاضل أحلامهم، من إضافة الصفة للموصوف... كقولك: حسن وجوهم، وكمال أجسامهم... إلخ، والأحلام -كالحلوم-: جمع حلم... وهو الأناة والعقل. قال الشاعر:

**وللحلم أوقات وللجهل مثلها ... ولكن أوقاتى إلى الحلم أقرب**

والأحلام -أيضًا-: جمع حليم... ومثله: حلماء، والفعل: حلم، والمصدر: الحلم، وقوله: "عن ذاك": من البلاغة بمكان... كأنه ضمن لفظ "متسع" معنى "تجاوز" فعداه بمن بدل اللام، ومتسع: مكان اتساع، وهو مبتدأ مؤخر... خبره "فى فضل"، وفصل جملة الشطر الثانى عن جملة الشطر الأول.. لأن الثانية تشبه حالة كمال الاتصال... لكونها ناشئة عن سؤال تولد من الأولى فهى كأنها تعليل للحكم الذى فى الأولى.

**والمعني**: أنهم حكماء حلماء عقلاء، يفضلون الريث، ويختارون الأناة فلا يحدث منهم غضب يرميهم فى حمأة الجهل، أو يضعهم فى بوتقة الحمق ولو تعمد أحد إخراجهم عن طبيعتهم السمحة، وتصرفاتهم المهذبة المؤدبة فلن

يستجيبوا له، وستظل أخلاقهم ساحة فسيحة، وميدانًا واسعًا يذوب فيه جهل الجاهلين، وتمحى عنده حماقة الحمقى[1] :

**٩- أَعِفَّةٌ ذكرت في الوحيِ عِفَّتُهم**

**لا يطمعــون ولا يُــزرى بهمْ طَـمَـعُ**

**اللغة:** أعفة -كأعفاء-: جمع "عفيف" وهو من كف عما لا يحل له، ولا يجمل به، والوحي ... أي: الموحى به، وهو القرآن الكريم ففيه مجاز مرسل علاقته: التعلق الاشتقاقي، ويزرى بهم: يعيبهم ويحقرهم والفعل "يزرى" مضمن معنى "ينزل" ... ولذلك عداه بالباء.

**والمعنى:** أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم أنفة وشمم وإباء وعفة يعزفون عن الخنا، ويترفعون عن الدنايا، ويأبون النقص، ويرفضون العيب ويحقرون الطمع والجشع، ولهذا أثنى عليهم مولاهم، وسجل لهم القرآن ذلك في ألمع بيان، وأسطع تبيان.

**١٠- كم من صديق لهم نالوا كرامته**

**ومــن عــدو عليهم جاهــد جَــدَعوا**

**اللغة:** الصديق: المحب، والصداقة: المحبة، والصِّيِّدَقُ: الأمين ونالوا كرامته... أي: أعطوا كرامته... أي: أعطوه إياها... يقال: نلته، ونلت له، وبه أنوله، وبه، وأنلته إياه، ونولته، ونولت عليه، وله... الجميع بمعنى أعطيته... فالمعنى: أنهم منحوه كرامته... أي: خلقوا وأنشأوا وفرعوا له كرامة، فهي مستمدة من صداقته لهم، وصلاته بهم، ونال هنا - من النول،

---

[1] في حديث رواه ابن عباس... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من استجهل مؤمنًا فعليه اثمه» قال ابن عباس: وجهك .. أرجو أن يكون موضوعًا عنه ويكون على من استجهله.

كقال ... من القول...، وقد فهم الأستاذ عبد الرحمن البرقوقى -شارح الديوان- أنها من النيل، لأنه يقال: نلته أنيله وأناله نيلا ونالا ونالة.. إذا أصبته، وحصلت عليه، ولما كان المعنى على هذا الوضع لا يستقيم... قال: "فقوله (نالوا كرامته) مقلوب... أى : نال كرامتهم" وهو تخريج فيه سهو كبير، والجاهد : الشاق على نفسه فى عداوتهم، البالغ الغاية فى خصومتهم وجدعوا.. أى : حبسوا وسجنوا أو قطعوا أنفه، أو أذنه، أو يده، أو شفته فعلى المعنى الأول يكون المراد : أعجزوه عن العمل ضدهم، وعلى الثانى .. يكون كناية عن الذلة لأن قطع عضو من هذه الأعضاء يكون سمة على الهزيمة والهوان.

**والمعنى** : أن صديقهم يفيد منهم المنعة والقوة والكرامة، وعدوهم يكسب منهم الضعف والهوان والذلة والخذلان.

**١١- أعطوا نبى الهدى والبر طاعتهم**

**فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا**

**اللغة** : الإعطاء -كالمعاطاة والعطاء- : المناولة والانقياد، وفى قوله : أعطوا طاعتهم : مجاز عقلى فى النسبة الإيقاعية، لأن الطاعة لا تعطى، والمراد : انقادوا له، ونبى : فعيل بمعنى فاعل، وهو المخبر عن الله تبارك وتعالى، والمختار : عدم همزه، وقد نهى رسول الله الأعرابى عن ذلك حين قال له : يا نبئ الله .. فقال الرسول : "لا تنبز باسمى، فإنما أنا نبى الله" .. أى : بغير همز. والهدى : الرشاد والدلالة على الخير، والبر : الصلة والخير والإحسان، والطاعة : الانقياد -كما سبق- ونى : فتر وبطؤ وتأخر، والمضارع : ينى، والنصر : المعاونة والمساعدة، ونزعوا : انفضوا وانصرفوا، وإسناد "ونى" إلى "نصرهم" مجاز عقلى علاقته السببية .. والأصل : وما ونوا عنه بسبب نصرهم إياه.

**والمعنى** : لقد أسلموا أنفسهم لله وألقوا قيادهم لرسول الله، وقدموا أرواحهم وأموالهم فى سبيل الله، فما تأخروا عن مناصرته، وما نكصوا عن معاونته وما انصرفوا عنه فى أى مجال.

**١٢- إن قال : سيروا أجدوا السير جهدهم**

**أو قال : عوجوا علينا ساعة ربعوا**

**اللغة** : أجدوا : اجتهدوا فيه، أو عجلوا، أو لم يهزلوا فيه، والجهد بفتح الجيم وتضم : الطاقة والقدرة .. أى : على قدر طاقتهم، وعوجوا أمر من "عاج" .. أى : أقام ووقف، وربعوا : وقفوا، وانتظروا، وتحبّسوا وعطفوا ومالوا.

**والمعنى** : يصور طاعتهم الكاملة، وانقيادهم التام لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، بأنهم تحت أمره، ورهن إشارته، وأنهم يبذلون فى طاعته منتهى الجهد وغاية الطوق، ويسرعون فى الاستجابة إليه والحياطة به، والذب عن حماه.

* * *

**١٣- ما زال سيرهُمُ حتى استقاد لهم**

**أهل الصليب ومن كانت له بِيَعُ**

**اللغة** : زال -هنا- : من الزوال .. بمعنى الذهاب والتحول .. أى، ما توقف سيرهم، أو ما تغير سيرهم، وفهمها الأستاذ البرقوقى من "زال" الناقصة فقدَّر لها خبرا .. حيث قال : «ما زال سيرهم ذاك حتى انقاد لهم النصارى ... إلخ» ولكنها هنا تامة، واستقاد : انقاد واستسلم وذلّ وخضع وأهل الصليب النصارى .. يزعمون أن عيسى عليه السلام قتل وصلب، وأن اليهود هم الذين

فعلوا به ذلك، وفى القرآن الكريم : ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم . . . إلخ الآيات﴾[1].

والبيع : جمع بيعة، وهى -على ما تقول القواميس وكثير من كتب التفسير-: معابد النصارى، لكن نقل القرطبى عن الطبرى: أنها كنائس اليهود[2]، ونقل هذا صاحب اللسان أيضًا[3]، وهذا التفسير هو الذى يتفق مع ما ورد فى بيتنا هذا .. فأهل الصليب : النصارى، وأصحاب البيع : اليهود.

والمعنى : لقد استمر أصحاب رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- فى طاعتهم وانقيادهم ومتابعتهم للرسول .. حتى ذلّ النصارى، وخضع اليهود، وآمن المشركون، وانتصر الإسلام أعظم انتصار، وتكونت له دولة ذات قوة وبأس.

***

**١٤- خُذْ منهُمُ ما أتى عفوًا إذا غضبوا**

**ولا يكن هَمُّكَ الأمْرَ الذى منعوا**

**اللغة** : العفو : أَحَلّ المالَ وأطيبه، وَخيار الشىء وأجوده والفضل والمعروف، وما فضل من الماء عن الشاربين، ولكن المراد به هنا : ما جاء عن غير قصد، وبدون عمد، والهَم : الحزن، والكلام على حذف المضاف أى : موضع همك، والهم : ما نويته فى نفسك، ويجوز رفع "الهم" ونصبه وكذلك "الأمر" على أن أحدهما اسم "يكن" والآخر خبرها، والذى منعوه : أى : الذى جعلوه فى منعة، أو الذى أبوه و لم يسمحوا به.

---

[1] الآية ٢٥٧ من سورة النساء.

[2] الجامع لأحكام القرآن (١٢ : ٧١)، طبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٩٤٢.

[3] مادة (بيع) حيث قال : وقيل إنها كنيسة اليهود.

**والمعنى** : أنهم رجال أشاوس، ومحاربون أبطال، ومقاتلون شجعان فإذا غضبوا هاجت الدنيا وماجت، وإذا ثاروا أطاحت بكل القوى أمامهم فلا معنى لمناقشتهم ومجادلتهم فى حالة الغضب، ولا مجال لمحاولة ما أبوا

**فمِنْ دون ذلك خَرْطُ القَتَا  دِوَ ضَرْبٌ وطَعْنٌ يفُضُّ الشؤونا**[1]

***

**١٥- فإنَّ فى حربهم -فاترك عداوتهم-**
**شـرا يخـاضُ عليـه الصَّابُ والسَّلَعُ**

**اللغة** : عداوتهم : معاداتهم ومخاصمتهم، ويخاض : مضارع المبنى للمفعول من "خاض" الماء "يخوضه" : "خوضًا وخياضا" .. إذا دخل لجته، وخاض الغمرات : اقتحمها، وعليه : أى : فوقه، والصاب -كما يقول صاحب القاموس : شجر مر .. مفرده : صابة، وقال الجوهرى فى الصحاح-: إنه عصارة شجر مر .. قال فى القاموس : "ووهم الجوهرى"، وقال الأصمعى: الصاب : شجر إذا اعتصر خرج منه (سائل) كهيئة اللبن وربما نزلت منه نَزِيَّةٌ.. أى : قطرة -فتقع فى العين -كأنها شهاب نار وربما أضعف البصر .. قال أبو ذؤيب الهذلى :

**نام الخلىُّ وبِتُّ الليل مُشْتَجِرًا  كأن عينِىَ فيها الصاب مذبوع**[2]

وقيل : الصاب : عصارة الصبر، .. أما "السلع" فشجر مر، أو ضرب من الصبر، أو بقلة خبيثة الطعم.

---

[1] القتاد : شجر صلت له شوك كالإبر، وخرطه : تقطيعه، والفض : الكسر، والشؤون : مجارى الدمع، والمراد : يسيلها بالدموع.

[2] المشتجر : الذى يضع يده تحت حنكه مفكرًا .. لشدة همه.

**والمعنى** : تجنب عداوتهم ما استطعت، واحذر خصومتهم ما قدرت، فإن من يحاربهم يركب متن الشر، ثم يخوض عليه بحرًا مرًا، ماؤه من عصارات الصاب، وقطراته من شراب السلع.

وهذا أسلوب دانى القرابة من أساليب الاستعارة التمثيلية .. حيث شبه حالة من يحارب أبطال الإسلام، ويكسب عداوتهم، بمن يركب سفينة من الشرثم يخوض عليها بحرًا من عصارات الصاب والسلع .. حيث تكون النهاية وبالاً ونكالاً، ووبارًا ودمارًا.

**١٦- نَسْمُو إذا الحرب نالتْنا مخالبُها**

**إذا الزعانِفُ من أظفارِها خَشَعُوا**

**اللغة** : نسمو : نعلو، ونرتفع عن مواطن الذلة والخنوع، ونـأبى الذلـة والخضوع، ومخالب الحرب : أسلحتها، والزعانف : جمع "زعنفة" وهى -هنا: الجماعة التى ليس أصلها واحدًا، أو الأرذلون من الناس أو الطوائف الشاذة المنفَردة عن قبائلها، أو القطعة من الثوب، أو أسفله المتخرق، وعلى أنها القطعة من الثوب يكون الأسلوب مبنيًا على التشبيه والاستعارة، وفى قوله "مخالبها" و"أظفارها" : استعارة مكنية شبهت فيها الحرب بالأسد .. بجامع الخطر والهلاك فى كل منهما، ثم حذف الأسد ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو المخالب والأظفار.

**والمعنى** : إذا اشتدت الحروب، وتوالت الكروب فى ميدانها .. فإننا نصعد بالعمليات الحربية، ونجدد قوانا، ونواصل كفاحنا، ونضاعف جهودنا.. حتى ننتصر ولا نفعل فعل الزعانف والأمِعَّاتِ .. الذين يخشعون لهولها، ويتراجعون عن لهبها ويستكينون للذلة والخنوع والخضوع.

وفى البيت التفات من الغيبة إلى التكلم، وهو فن من البلاغة جميل.

* * *

١٧- لا فخْرَ إن هُمْ أصابوا من عَدُوِّهِمُ
وإن أصيبـوا فـلا خُـورٌ ولا جُـزُعُ

**اللغة** : لا فخر : أى لا يفخرون إذا انتصروا على عدوهم .. لأن ذلك طبيعتهم وعادتهم، فلا داعى للنشوة، ولا معنى لظهور حالات غير عادية، والخور -فى الأصل- : النساء الكثيرات الريب لفسادهن ولا واحد له من لفظه، وهو خبر لمبتدأ محذوف .. تقديره : فلا هم خور .. والمعنى حينئذ يكون على التشبيه فى الضعف، والجزع : جمع جزوع .. أى : شديد الخوف، جزع- كفرح- فهو جازع وجَزِع وجزوع، والمصدر : الجزع والجزوع ويمكن ضبط الكلمتين هكذا .. "فلا خُورْ ولا جَزَع"، وتسكين راء "خور" يكون لضرورة الشعر .. أى فلا خور ولا جزع منهم، بل لعله أنسب لصدر البيت .. "لا فخر"، وفى هذا البيت عودة إلى أسلوب الغيبة على طريق الالتفات.

**والمعنى** : أنهم إخوة فى الحرب، وأشقاء فى الطعن والضرب، لا يغرهم النصر لأنه طبيعة فيهم، وسليقة فى خلائقهم، ولا يهتزون للهزيمة لأنهم أكبر منها وأرفع من التأثر بها .. ولهذا لا يفخرون، ولا يتعالون فى الحالة الأولى ولا يخنعون أو يضرعون، فى الحالة الثانية.

١٨- كأنهم فى الوغى والموت مُكْتَنِعٌ
أُسْدٌ ببيشَةَ فى أرساغِها فَدَعُ

**اللغة** : الوغى: الصوت والجلبة، والمراد : الحرب والأسلوب مجاز مرسل علاقته المسببية أو الحالية، ومكتنع : متضام للتوثب والانقضاض، أو : لازم وحتمى، والتعبير كناية عن اشتداد المعركة ورهبتها وبيشة : مأسدة فى

واد بهذا الاسم فى طريق اليمامة، ويقال فيها بئشة .. بالهمزة بدل الياء، والأرساغ : جمع "رسغ" وهو المفصل الذى بين الساعد والكف، أو بين الساق والقدم .. فى الإنسان، والموضع الدقيق الذى بين الحافر والوظيف فى الحيوان، والفدع : اعوجاج الرسغ حتى ينقلب الكف أو القدم.

**والمعنى** : أنهم فى حومة الوغى، واندلاع النار، واشتعال الحرب، واستطالة لهبها -حيث الموت يحيط بالفرسان، ويحمل قصب الرهان فى الفتك بالفتيان- يزأرون كالأسود، ويصولون فى المعركة، وأيديهم على مقابض السيوف، والرماح ملتفة .. حتى ليظن الرائى أن ما ثبتها على هذا الوضع هو ما فيها من اعوجاج.

* * *

**١٩- إذا نَصَبْنا لقومٍ لا نَدِبُّ لَهُم**

**كما يُدِبُّ إلى الوحْشِيَّة الذَّرَعُ**

**اللغة** : نصبنا لقوم : عاديناهم، وندب : نمشى على مهل وهينة والوحشية واحدة الوحوش، والمراد بها البقرة الوحشية، والذرع -بالتحريك- ولدها والذرع -أيضًا- : الناقة التى يستتر بها الصياد عندما يرمى الصيد -كالذريعة والناقة التى تعد لذلك تعود الاختلاط مع الحيوانات التى تصاد .. حتى تألفها وتأنس إليها وتقف بينها .. ثم يأتى الصائد ويتدرأ بهذه الناقة، ويرمى صيده بما معه من سلاح، ومشية تلك الناقة بين الوحوش تكون الهوينى دائمًا،ومشية الصائد حواليها تكون وئيدة حتى يستطيع خداع الصيد وختله.

وقد ضبط الأستاذ البرقوقى الكلمة هكذا "الذُّرُع" .. أى : بضم الذال والراء .. وهذا ضبط لم أجد ما يؤيده فى القواميس.

والمعنى : أننا إذا عادينا أناسًا نجاهرهم بالعداء، ونقابلهم مواجهة ونبارزهم فى الميدان. فعل الأبطال المغاوير، والكماة الصناديد .. ولا يمكن أن نأتيهم مخاتلين مخادعين مختفين وراء الذرائع والستائر لأن هذا فعل الضعفاء الجبناء.

وقد عاد فى هذا البيت -ثانية- إلى أسلوب الالتفات من الغيبة إلى التكلم .. كما فعل فى البيت رقم ١٦ والبيت رقم ١٧.

* * *

٢٠- أكرم بقومٍ رسول الله شيعتهُمْ
إذا تفرقــت الأهــواء والشِّـيَــعُ

اللغة : أكرم : صيغة تعجب، فعل ماض على صورة الأمر، والباء فى "بقوم" زائدة، وقوم : فاعل مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع ظهورها حركة حرف الجر الزائد، وشيعتهم : تقدم معنى هذه الكلمة مع شرح البيت الثالث من هذه القصيدة، والمراد : ناصرهم ومؤازرهم ، والأهواء : جمع هوى، والمراد : الآراء، واتجاهات النفوس.

والمعنى : ما أكرم هؤلاء القوم، وما أنبلهم، وما أسماهم، وما أروع نصرهم لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، والتفافهم حوله .. بينما الأهواء متفرقة والوحدات متمزقة والاتجاهات شتى.

* * *

٢١- أَهْدَى لهُمْ مِدَحِى قلبٌ يؤازره
فيمــا أراد لســانٌ حائِــكٌ صَــنَــعُ

اللغة : يؤازره : يعاونه ويساندَه ويساويه، وحائك : صائغ وصانع حاذق بليغ.

**والمعنى** : إننى اقدم لهم هدايا مدائحى، وصفايا قصائدى، من سويداء قلبى ووحى ضميرى، وحنايا فؤادى، ويساعده فى ذلك ويسانده ويعاضده، ويتضامن معه لسان قدير يحسن السبك ويجيد الحبك ويحذق صوغ الأساليب، وصُنْعَ التراكيب .. من ذلك الطُّرْزِ الرطيب.

وإسناد أهدى إلى قلب : مجاز عقلى علاقته المكانية .. قال الشاعر :

**إن الكلام لفى الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا**

* * *

**٢٢- فإنهم أفضــل الأحيــاء كُلِّهِمُ**

**إن جَدَّ بالناس جدُّ القول أو شَمَعُوا**

**اللغة:** الأحياء: جمع حى، وهو البطن من بطون القبائل. يريد أفضل القبائل جميعًا، وعبر بالجزء عن الكل، أو أراد الحقيقة الخاصة وهى البطون - دون تجوز- وهو جد شامل، وجد: ضد هزل، وجد القول القول الجاد.. أى: الصادق، وشمعوا: لعبوا أو فرحوا.

**والمعنى:** أن أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أفضل الخلائق طرا، وخير الناس جميعًا، والخلق طرا يعرفون هذا ويقرون به ويخضعون له ونحن نعترف به، ونعرفه فى جد الناس ومزاحهم، وصدقهم وهزلهم.. فهذه حقيقة ثابتة، وواقع مقرر، وما زدت فى تسجيلى له، أو تعدادى لجوانبه عن الإقرار بحقه، والنطق بصدقه وإن كان معروفًا مألوفًا ومكرورًا معادًا.

وإلى هنا ينتهى شرح هذه النفحة الأدبية الرائعة، والفوحة الشعرية الخالدة... التى تفجرت ينابيعها حالاً، وفاضت عيونها ارتجالاً... على لسان ذلك الشاعر الفحل في مواقف العظمة والمجد والخلود، بين يدي سيدنا رسول الله، وبأمر منه صلوات الله وسلامه عليه.

## موضوع القصيدة والمناسبة فيها:

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة كثير من وفود البوادى التى جاءت تعلن إسلامها وتؤازر الرسول الكريم فى دعوته ومن هذه الوفود وفد تميم أتى مبايعًا النبى الصادق الأمين، وفيهم وجوه القوم وسادتهم، وكانوا جفاة غلاظا، فنادوا رسول الله من وراء الحجرات يحملونه على المفاخرة فأذن لهم وخطب منهم عطارد بن حاجب بن زرارة فبالغ فى الفخر بقومه ووصفهم بالعزة فى الملك والجاه والغنى والكثرة، والقوة والمنعة، والزعامة فى العرب، فأذن الرسول الكريم لثابت بن قيس فقام خطيبًا يفاخر بالرسول وأصحابه من المهاجرين والأنصار ونقض دعاواهم ورد مزاعمهم وأخذ من كبريائهم وطا من غرورهم.

ثم أذن الرسول الكريم لشاعرهم الزبرقان بن بدر فأنشد شعرًا يفخر فيه بقومه وجمع لهم فيه من المجد والمكارم والسؤدد، حتى سكت فأشار الرسول الكريم إلى شاعر المسلمين حسان "فأنشد هذه القصيدة التى ردتهم إلى الصواب وأزالت ما ران على قلوبهم من غشاوة، فأسلموا جميعًا وحسن إسلامهم، ويغلب على الظن أن الشاعر ارتجل هذه القصيدة من غير سابق إعداد لها أو تحبير فى صياغتها، لأنها معارضة شعرية جاءت على وزن قصيدة شاعر تميم الزبرقان ورويها، لذلك كانت قريبة التداول دانية من الأفهام.

## منهج القصيدة:

حوت القصيدة على غرض واحد من الأغراض الشعرية المشهورة وهو الفخر، فلم تتعدد فيها الأغراض كما هو مألوف في منهج القصيدة القديم، فتناول حسان فيها موضوعًا واحدًا من غير بكاء على الأطلال ولا نسيب وتشبيب، بل كانت كل المعانى الجزئية تدور حول التفاخر بالرسول وأصحابه، وإن تكررت بعض المعانى مما يؤكد أنها قيلت فى ساعتها.

ومع ذلك فقد عدها النقاد من خير شعره، لتحقق وحدة الموضوع فيها وسلامتها من العيوب، وسمو الغرض فيها.

## المعانى والألفاظ:

وقد استمد الشاعر معانيه، التى تتفق مع الغرض العام من القصيدة استمدها مما جاء به الرسول وما عليه الصحابة، فهم أشرف الناس لسمو رسالتهم الجديرة بالاتباع، وهى الدعوة إلى الدين الذى دافع عنه شجعان بفطرتهم يضرون أعداءهم، وكرام بطبيعتهم ينفعون أصدقاءهم، ويتصفون بالعفة ورزانة الأحلام، مما يمنعهم من الطيش والخسة والجشع، وهم يذعنون لأمر الرسول الكريم، ويتفانون فى طاعته ويؤازرونه وينصرونه، حتى أذلوا الأعداء واستقام لهم اليهود والنصارى، بشجاعتهم فى القتال، وقوة بأسهم فى الجهاد، لا يفرحون بالنصر، ولا يجزعون إذا أصيبوا، وهم لسمعتهم كالأسود ينصرون بالرعب، ثم يختم القصيدة بمدح الرسول الكريم وأتباعه وفضلهم على الخلق أجمعين.

وهكذا نرى المعانى نبعت من روح الإسلام ومن الشريعة ومبادئها، وهى قريبة وإن كانت بعيدة، وليست عميقة وإن كانت بكرا، ولا تخلو من التكرار فى بعض الصور مع الوضوح والتداول.

أما ألفاظ القصيدة فهى سهلة، تمتاز بالعذوبة وحلاوة النغم، وقوة اللحن واتساقه فهى خالية من اللفظ الغريب، والمتنافر فى حروفه، وأسلوبها فضفاض يتلاءم مع الغرض من الفخر، وجزل قوى رصين التراكيب احتوت على كثير من الألفاظ والمصطلحات التى تتضمن الخلق الإسلامى والقيم التشريعية.

## التصوير الأدبى فى القصيدة: ١

كانت عاطفة الشاعر قوية صادقة أعانت كثيرًا على تحريك الخيال الذى رسم كثيرًا من الصور الأدبية الرائعة ما بين تشبيه واستعارة وكناية فى القصيدة الكثير منها وما أجمل الاستعارة فى قوله:

**إن الذوائب من فهر وأخوتهم**

**قد بينوا سنة للناس تتبع**

والكناية عن الشجاعة والقوة فى قوله:

**لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم  عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا**

والاقتباس من القرآن الكريم فى قوله:

**أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم  لا يطمعون ولا يرديهم الطمع**

فهو من قوله تعالى: ﴿للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا﴾

والكناية التى تصور كمال الخضوع تصويرًا دقيقًا فى قوله:

**وإن قال سيروا جدوا السير جهدهم  أو قال عوجوا علينا ساعة رَبَعُوا**

ثم الاستعارات فى قوله:

**نسموا إذا الحرب نالتنا مخالبها  إذا الزعانف من أظفارها خشعوا**

والتشبيه فى البيت الثامن عشر والبيت التاسع عشر

وكلها صور أدبية تتناسب مع مقام الفخر، وتتلاءم معانيهُ الكثيرة مع الصور التى جاءت فى تصوير قوى بارع.

ومطلع القصيدة قوى رائع يشير إلى الغرض من القصيدة وهو الفخر، ثم تدافعت المعانى الجزئية نحو الغرض حتى آخر القصيدة.

ومن الأبيات التى بلغت الغاية فى الجودة قوله:

**لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا**

حيث صور عدوهم الذليل الذى لا يعز مطلقا فى صورة تمثيل خلاب استمد مواده من التجارب التى يعيشها فى الثياب المتهتكة التى يحتاج الشخص فى ترقيعها إلى رقعة تسد فرجتها وتستر عورة صاحبها.

وقوله:

**إن كان فى الناس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع**

فقد صور الصحابة حيث بلغوا الغاية فى المحامد والمكارم، والناس دونهم فى ذلك مهما بلغوا، وهو فى هذا يشير إلى فضل الصحابة، كما جاء فى حديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكذلك فى البيت الثامن والبيت الرابع عشر والبيت السادس عشر والبيت الثامن عشر والبيت التاسع عشر.

وفى قوله:

**قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا**

اكتفى فى تصويره بمجرد وقوع الضرر منهم لا ما يقتضيه الفخر من إبادة العدو وهلاكه فالمقام مقام الفخر فى ساحة القتال والجهاد.

وفى قوله:

كم من صديق لهم نالوا كرامته ومن عدو عليهم جاهد جدعوا

عكس المعنى المراد إذ صورهم وهم ينالون من كرامة أصدقائهم وكان

الأولى أن يجعلهم مصدر الكرم والتكريم، اللهم إن كان مراده أنهم فى سبيل الدين لا يهابون أصدقاءهم فى الجاهلية والذين لم يدخلوا فى الإسلام وعلى هذا فالمعنى صحيح وأنهم لا يخافون فى الحق لومة لائم.

وكرر المعنى فى البيتين السابع والتاسع فالشطر الثانى منهما يدور حول معنى واحد.

ولم يكن دقيقًا فى قوله:

سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

فالسجية شيمة تلازم الإنسان، لا يمكن أن تكون فيها خليقة محدثة وطبيعة مبتدعة فأدى إلى التناقض فى المعنى الذى صوره فى البيت.

واستطرد فى قوله:

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا

قوله: «بالأمر الذى شرعوا استطراد فى معنى البيت حيث يغنى عنه قوله: تقوى الإله، ولكنه إطناب وتفصيل للمعنى لتثبيت المعانى الإسلامية الجديدة وألفاظها المبتكرة.

كذلك فى البيت الأخير من القصيدة مما يدل على الاستطراد عند الشاعر، الأمر الذى يدفعه إلى التكرار حينًا فى بعض المعانى.

الموسيقى:

القصيدة من البحر البسيط، ورويها هو حرف العين المضمومة ومن مظاهر الموسيقى الداخلية التصريع والتنوين وتكرار [illegible] البديعية والتأثر بالقرآن فى القصيدة واضح كل الوضوح

# الفصل الثانى

## تحليل فنى
## لروائع من العصر الأموى

من بدائع النثر فى العصر الأموى :

## رسالة عبد الحميد إلى الكتاب

كتب عبد الحميد رسالة إلى الكتّاب يوصيهم فيها، فقال:

«أما بعدُ، حَفِظكم الله يا أهْلَ صناعة الكتابة، وحَاطَكم ووفّقكم وأرشدكم، فإن الله عزوجل جَعَلَ الناس بعد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد الملوك المكرَّمين، أصنافًا، وإن كانوا فى الحقيقة سَواء، وصَرَّفهم فى صُنُوف الصناعات وضُروب المحاوَلات، إلى أسباب مَعايشهم[1]، وأبواب أرزاقهم، فجعلكم معشَر الكُتّاب فى أشرف الجهات، أهل الأدب والمروءة[2] والعِلم والرواية[3]، بكم تنتظِم للخلافة مَحَاسنُها، وتستقيم أمُورها، وبنصائحكم يُصلِح الله للخلق سلطانهم وتعمرُ بلادهم[4]، لا يستغني المِلكُ عنكم، ولا يُوجد كافٍ إلا منكم، فَمَوْقعُكم من الملوك، مَوْقِع أسماعهم التى بها يسمَعُون، وأبصارهم التى بها يُبْصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يَبْطشون، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم، ولا نَزَع عنكم ما أضفاه[5] من النعمة عليكم.

وليس أحدٌ من أهل الصناعات كلِّها، أحوج إلى اجتماع خِلال الخير المحمودة، وخِصال الفضل المذكورة المعدودة، منكم أيُّها الكتّاب إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكتاب من صِفَتكم، فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه

---

[1] فى مقدمة ابن خلدون "معاشهم".

[2] فيها "والمروءات".

[3] فيها "والرزانة".

[4] فيها "بلدانهم".

[5] أسبغه.

صاحبهُ الذى يثق به فى مُهمات أموره. أن يكُـون حليمًا فـى موضـع الحِلْـم، فهيمًا فى موضـع الحُكـم، مِقْدَامـا فـى موضـع الإقـدام، مِحْجامـا فـى موضـع الإحجام، مُؤثـرًا للعفـاف، والعـدل، والإنصـاف، كَتُومًـا للأسـرار، وفيًـا عنـد الشدائد، عالمًا بما يأتى من النوازل، يضع الأمور مواضعها، والطوارق أماكنهـا، قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه أخذ منـه بمقـدار مـا يكتفى به، يعرف بغريزة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، مـا يـرد عليـه قبـل وروده، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صـدوره، فيعـد لكـل أمـر عدتـه وعتـاده[١]، ويهيىء لكل وجه هيئته وعادته.

فتنافسوا يا معشر الكتاب، فى صنـوف الآداب، وتفقهـوا فـى الديـن؛ وأبـدؤوا بعلـم كتـاب الله عزوجـل والفرائـض، ثـم العربيـة، فإنهـا ثقـاف[٢] ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط؛ فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، واعرفوا غريبهـا ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها، فإن ذلك معين لكـم علـى ما تسمو إليه هممكم، ولا تضيعوا النظر فى الحساب، فإنه قوام كتاب الخراج، وراغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها[٣] ودنيها، وسفساف[٤] الأمور ومحاقرهـا، فإنهـا مذلـة للرِّقـاب، مفسـدة للكُتَّـاب، ونَزِّهـوا صنـاعتكم عـن الدنـاءات[٥]، واربئوا[٦] بأنفسكم عن السِّعاية والنميمـة، ومـا فيـه أهـلُ الجهـالات، وإيـاكـم

---

[١] العتاد: العدة.

[٢] الثقاف فى الأصل: ما تسوى به الرماح.

[٣] أى رفيعها.

[٤] الردى، من كل شىء.

[٥] فى المقدمة، "الدناءة"

[٦] ربأ: علا وارتفع.

والكبر والصلف[١] والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابوا فى الله عزوجل فى صناعتكم، وتواصوا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم.

وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه، حتى يرجع إليه حاله، ويثوب[٢] إليه أمره، وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء إخوانه. فزوروه وعظموه، وشاوروه، واستظهروا[٣] بفضل تجربته، وقدم[٤] معرفته، وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه، أحفظ[٥] منه على والده وأخيه، فإن عرضت فى الشغل محمدة، فلا يضيفها إلا إلى صاحبه وإن عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر[٦] السقطة والزلة، والملل عند تغير الحال، فإن العيب إليكم معشر الكتاب. أسرع منه إلى القراء. وهو لكم أفسد منه لها.

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل[٧] يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه. فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره. واحتماله وصبره[٨]. ونصيحته وكتمان سره، وتدبير أمره، ما هو جزاء لحقه، ويصدق ذلك بفعاله[٩] عند الحاجة إليه، والاضطرار إلى ما لديه.

---

[١] فيها "والسخف".

[٢] يرجع.

[٣] تقووا.

[٤] فيها "وقديم".

[٥] فيها "أحوط".

[٦] فيها "فلا يصرفها".

[٧] فيها "إذا صحبه من يبذل له".

[٨] فيها "وخبره".

[٩] فيها "تبعا له" وهو تحريف.

فاستشعروا ذلكم -وفقكم الله- من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة، والحرمان والمواساة والإحسان، والسراء، والضراء، فنعمت الشيمة هذه لمن وسم بها، من أهل هذه الصناعة الشريفة، فإذا وُلِّى الرجل منكم، أو صُيِّر إليه من أمر خلق الله وعياله أمر، فليراقب الله عزوجل، وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقًا، وللمظلوم منصفًا، فإن الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله، ثم ليكن بالعدل حاكمًا، وللأشراف مكرما، وللفىء موفرًا، وللبلاد عامرًا وللرعية متألفًا، وعن إيذائهم متخلفًا، وليكن فى مجلسه متواضعًا حليمًا، وفى سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقًا، وإذا صحب أُحدكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها، أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح، بألطف حيلة وأجمل وسيلة، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرًا بسياستها، التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحا لم يهجها إذا ركبها، وإن كانت شبوبا[1] اتقاها من قبل يديها، وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونا قمع برفق هواها فى طريقها، فإن استمرت عطفها يسيرًا، فيسلس له قيادها، وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم، وجربهم[2] وداخلهم.

والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاورُه من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أولى بالرفق بصاحبه، ومداراته، وتقويم أوده من سائس البهيمة التى لا تحير[3] جوابا، ولا تعرف صوابا، ولا تفهم خطابا، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها، ألا

---

(1) شب الفرس كضرب ونصر: رفع يديه، وفى المقدمة "من بين يديه".

(2) وفى صبح الأعشى "وخدمهم".

(3) أى لا ترد.

فأمعنوا[1] -رحمكم الله- في النظر، وأعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر، تأمنوا[2] بإذن الله ممن صحبتموه النبوة، والاستثقال والجفوة، ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة، إن شاء الله تعالى.

ولا يجاوزن الرجل منكم -فى هيئة مجلسه، وملبسه ومركبه، ومطعمه ومشربه، وبنائه[3] ، وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره -قدر حقه، فإنكم -مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم- خدمة لا تحملون فى خدمتكم على التقصير، وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير، واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرته لكم، وقصصته عليكم، واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلهما، ولاسيما الكتاب وأرباب الآداب، وللأمور أشباه، وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتنف[4] أعمالكم، بما سبقت إليه تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأصدقها حجة، وأحمدها عاقبة.

واعلموا أن للتدبير آفة متلفة، وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته[5] ، فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقه، وليوجز فى ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله، ومدفعة للتشاغل عن إكثاره، وليضرع إلى الله فى صلة توفيقه، وإمداده

---

(1) فيها "فارفقوا".

(2) تأمنوا: مجزوم فى جواب الأمر: أو بعبارة أخرى جواب لشرط محذوف مع فعل الشرط، أى "إن تعملوا.... تأمنوا" ومن ثم يجوز فى "ويصير" ثلاثة أوجه: الجزم والنصب والرفع كما هو مشهور، فقول بعضهم: "ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ" مردود.

(3) قد يكون المراد به مسكنه الذى يبنيه، وقد يكون المراد زفافه، من بنى على أهله وبها بناء وابتنى: زفها.

(4) مبتدأ.

(5) فيها "علمه ورويته".

بتسديده، مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه، فإنه إن ظن منكم ظان، أو قال قائل: إن الذى برز من جميل صنعته، وقوة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرض بظنه[1] أو مقالته إلى أن يكله الله عزوجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير خاف.

ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور، وأحمل لعبء التدبير، من مرافقه فى صناعته، ومصاحبه فى خدمته، فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب، من رمى بالعجب وراء ظهره، ورأى أن صاحبه أعقل منه، وأحمد[2] فى طريقته، وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه، من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثر على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيره، وحمد الله واجب على الجميع، وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدث بنعمته.

وأنا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل: "من يلزم النصيحة[3] يلزمه العمل" وهو جوهر هذا الكتاب، وغرة كلامه، بعد الذى فيه من ذكر الله عزوجل، فلذلك جعلته آخره، وتممته به، تولانا الله وإياكم يا معشر الطلبة والكتبة، بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده، فإن ذلك إليه وبيده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

(صبح الأعشى ١: ٨٥، ومقدمة ابن خلدون ص٢٧٥، وكتاب الوزراء والكتاب ص٧٠).

---

[1] فيها "بحسن ظنه".

[2] فيها "وأجمل".

[3] فى نسخة من صبح الأعشى "الصحة" وذكر الجاحظ فى البيان والتبيين (٢: ٤٦) قال: ومن كلام الأحنف السائر فى أيدى الناس، والزم الصحة يلزمك العمل.

## الدراسة والتحليل

**التعريف بالكاتب :**

«هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد من موالى بنى عامر بن لؤى، وهو فارسى الأصل.... من أهل الأنبار بالعراق وسكن الرقة. وكان فى أول أمره ينتقل فى القرى معلمًا فى كتابتها، وعرف فى نفسه فصاحة ومهارة بيانية، فالتحق بديوان هشام بن عبد الملك وأعجب به سالم كاتب هشام فأصهر إليه... وعرفه مروان بن محمد وكان عاملاً لهشام على أرمينية فاتخذه مروان كاتبًا له... وعندما تولى مروان الخلافة بين عامى (١٢٧- ١٣٢هـ) أصبح عبد الحميد رئيس ديوانه.... وظل وفيًا لمروان حتى قتلا معًا فى معركة بوصير بمصر.

**المناسبة:**

رسالته ليست موجهة إلى كاتب معين وإنما هى لطائفة الكتاب التى أصبح لها دور هام فى كيان الدولة وفى آداب الكاتب وسلوكه وتعامله مع الحكام والرعية....[1].

**الأفكار :** يمكن تقسيمها إلى ما يلى :

١- من قوله: أما بعد.... من النعمة عليكم...

أهمية الكتاب للدولة والرعية معًا.

٢- من قوله: وليس أحد من أهل الصناعات... لكل وجه هيئته وعادته صفات الكاتب النفسية والعقلية التى لابد منها لنجاحه فى عمله.

٣- من قوله: فتنافسوا يا معشر الكتاب.... والعدل والنبل من

---

(١) د. شوقى ضيف فى كتابه العصر الإسلامى ص ٤٧٢- ٤٧٤.

سلفكم : المعارف التى لابد منها للكاتب أى معرفة الكتاب والسنة والعربية بآدابها وعلومها.

٤- من قوله: وإن نبا الزمان برجل.... وهو لكم أفسد منه لهـا. ينبه الكتاب إلى ضرورة التعاون فيما بينهم وخاصة أيام المحن والشدائد التى تنزل بأحدهم.

٥- من قوله: فقد علمتم أن الرجل منكم... والاضطرار إلى ما لديه ضرورة الوقوف مع الكاتب الذى تنزل به مصيبة مهما كانت النتائج وكتمان سره.

٦- من قوله: فاستشعروا ذلكم.... وجرَّبهم وداخلهم يقارن بين سياسة الفارس لفرسه وسياسة الحاكم لرعيته.

٧- من قوله: والكاتب بفضل أدبه.... والشفقة إن شاء الله تعالى. حتمية الصبر على الحاكم عندما يكون فى مأزق أو فى حالة عصبية وانتظار هدوء العاطفة لمراجعته.

٨- من قوله : ولا يجاورن الرجل منكم... وأحمدها عاقبة: تحذير الكتاب من الإسراف فى النفقة فهى مجلبة للفقر...

٩- من قوله : واعلموا أن للتدبير آفة متلفة... من تأمله غير خافٍ آداب الكاتب خلال تأدية العمل مثل الاعتدال فى مجلسه والإيجاز فى كلامه.

١٠- من قوله : ولا يقبل أحد منكم....والتذلل لعزته، والتحدث بنعمته: وجوب البعد عن اغتياب الكاتب لمن غاب من إخوانه والطعن به.

١١- من قوله: وأنا أقول فى كتابى هذا... ورحمة الله وبركاته: تذكير الكتاب بضرورة اقتران الإيمان بالمثل العليا والعمل بها حتى يترجم الإيمان إلى عمل ملموس مقنع.

وأفكار عبد الحميد كما استعرضناها قد جاءت على النحو التالى من حيث المصدر والترتيب والصحة ومدى الجدة :

**الفكرة الأولى:**

مصدرها العقيدة الإسلامية بفرعيها الكتاب والسنة، إضافة معرفة الكاتب بالعربية علومها وآدابها معرفة عميقة، ولا يمكن أن نبعد تجربة عبد الحميد فى حياته وإطلاعه على آداب الفرس والفارسية لغته الأم وهى فكرة قيمة تهم الكتاب الذين هم موظفوا الدولة الكبار فى عصرنا الحاضر وبهم صلاح أمر الحكومة والرعية. وترتيبها جيد فهى مقدمة لابد منها فى بداية كتاب يعتبر مرشدًا عامة لطائفة الكتاب فى دواوين الدولة وهى صحيحة لعصر عبد الحميد ولكل العصور.

وهى قديمة ولاشك استقاها من آداب الفرس فى بلاطهم ودواوينهم من كتاب آداب نامة وغيره ولكن يبقى لعبد الحميد حسن استغلاله لمعارفة المنوعة وإغناء الثقافة العربية الإسلامية.

**الفكرة الثانية:**

مصدرها خبرة الكاتب فى الحياة ضمن الدواوين وهى فكرة قيمة لكل موظف شريف مخلص وترتيبها مناسب، فالأخلاق أولاً والعلم والثروة... فيما بعد وهى صحيحة قديمًا وحديثًا ومستقبلاً أيضًا ما دامت نفسية الإنسان لم تتبدل عبر العصور وإن تغيرت الأزياء والموضات والصراعات فالأعماق كما هى منذ قابيل وهابيل وهى فكرة قديمة أحسن فى اختيارها وإيصالها للكتاب.

**الفكرة الثالثة:**

مصدرها خبرته فى التعامل مع اللغة العربية وتطويع الأسلوب العربى للتعبير عن أفكاره. وهى أفكار جيدة فما زلنا حتى اليوم بحاجة إلى نصيحة

كهذه توجه إلى متأدبينا للوقوف على منابع العربية الفصحى من منبعها الأصيل (الكتاب والسنة) وما بعدها له دور ثانوى. وترتيبها مناسب فاللغة أداة الكاتب ويتعامل معها يوميًا فلابد من إجادة التعبير بها وإلا خاب الكاتب فى مسعاه وهى صحيحة وقديمة أيضًا فقد سبق أن جاء والد الفرزدق الشاعر بابنه إلى الإمام على كرم الله وجهه لينصح له كيف يعلمه البيان فقال له ايحفظ القرآن الكريم أولاً وفعلاً قيد الوالد الشاعر بقيد حديدى و لم يطلق سراحه حتى حفظ القرآن الكريم.

**الفكرة الرابعة:**

مصدرها خبرته فى التعامل مع زملائه فى دواوين الدولة ونفسيته الصافية الخالية من الصغائر وهى فكرة قيمة يحتاجها كل إنسان سوى ينوى بناء علاقات متوازنة مع زملائه فى العمل. وترتيبها مناسب وصحيحة لأنها منهج لبناء علاقات حسنة فى العمل ضمن الدواوين وهى فكرة قديمة ويبقى له حسن التعبير عنها.

**الفكرة الخامسة:**

مصدرها نفس الشاعر وخبرته بالحياة.... وهى ضرورية للكاتب وترتيبها فى المكان المناسب وصحيحة لعصره ولكل عصر وقديمة لكنه استطاع التنبيه على قيمتها لطائفة الكتاب.

**الفكرة السادسة والسابعة:**

مصدرها خبرة الشاعر فى حياته واستعمال البهائم للتنقل بالقياس على التعامل مع الرعية، ولأمر ما كان أنبياء الله عليهم السلام قد مروا بتجربة رعاية الأغنام ومنها يتدربون على رعاية البشر. وهى فكرة حسنة وترتيبها مناسب بلاشك يحسن بكل منا الانتفاع بها، لأنها صحيحة تمامًا ولا يقلل من أهميتها أنها مسوقة من قبل عبد الحميد.

**الفكرة الثامنة:**

مصدرها القرآن الكريم حيث نصحنا بالاعتدال فى النفقة ونهى عن الإسراف والبخل معًا وهى فكرة قيمة لأنها ضرورية للإنسان كل إنسان على مر العصور. وترتيبها جيد وهى صحيحة فى الأزمان كلها والأماكن جميعًا. وهى قديمة لم يأت بها من بنات أفكاره ولكن له فضل حسن التعبير عنها.

**الفكرة التاسعة:**

مصدرها تجربة الشاعر وخبرته فى دواوين الدولة الأموية وهى تفيد كل موظف يبغى النجاح فى عمله وخاصة الذين يعملون فى الخدمات ويحتكون يوميًا مع الجمهور، وترتيبها مناسب وصحيحة وجديدة له فضل التنبيه لها.

**الفكرة العاشرة:**

مصدرها تجربة غنية فى التعامل مع زملاء العمل ونصحه لهم بالبعد عن الحسد وتدبير المكائد والمقالب فهى تنغص العيش وتعطل سير العمل وهى هامة للجميع فى عصره وعصرنا أيضًا وفى المستقبل أيضًا ما دمنا بحاجة للتعامل خلال العمل واجتماعنا بحكم ظروف المهنة، وقد جاءت فى مكانها المناسب وصحتها لا غبار عليها، وهى قديمة لأن القرآن الكريم قد نبه المسلمين أن يهجروا الغيبة والحسد والتباغض.... ولعبد الحميد فضل حسن التعبير عنها بلغة سهلة.

**الفكرة الحادية عشرة:**

مصدرها تجربة الشاعر، وقيمتها عالية لأنها تؤكد ضرورة اقتران العقيدة السليمة بالعمل الصحيح، وإلا لم يبق معنى لعقيدة جيدة ما دام السلوك والعمل سيئًا وجاءت ختام الكتاب وختامها مسك فهى بحق أهم وصايا

الرسالة فترتيبها حسن وهى قديمة فقد نبه القرآن الكريم إلى خطر النفاق وهو تباعد العمل عن العقيدة ويبقى للكاتب فضل التأكيد على أهميتها للكتاب في حياتهم اليومية وتعاملهم مع بعضهم ومع الناس.

**العاطفة:**

النص أقرب إلى التشريع الأخلاقي والعملي لمهنة الكتابة لذلك لا مكان للعاطفة فى مثل هذه النصوص؛ لكونها أقرب إلى الأسلوب العلمى البحت.

**الخيال:**

والخيال أيضًا ضئيل لأنه لا مكان للصور والأخيلة ما دام العقل مسيطرًا على النص و لم يلجاء للخيال إلا نادرًا مثل قوله:

* أبواب رزقهم: شبه الرزق بغرفة لها باب ثم حذف المشبه به وأبقى بعض لوازمه وهو الباب فهى استعارة مكنية.

*موقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون تشبيه ضمنى ومثله: وأبصارهم التى بها يبصرون وألسنتهم التى بها ينطقون تشبيه ضمنى نلحظه دون أداة تشبيه مثل قول الشاعر:

**سيذكرنى قومى إذا جد جدهم — وفى الليلة الظلماء يفتقد البدرُ**

* العربية ثقاف ألسنتكم: شبه اللغة الفصحى بالثقاف الذى تسوى به الرماح وصرح بالمشبه به فهى استعارة تصريحية.

* إن نبا الزمان برجل منكم... حتى يئوب إليه أمره كنايتان الأولى عن الشدة والثانية عن الرخاء.

* نعمت الشيمة هذه لمن وسم بها استعارة مكنية فقد عبر عن المشبه به بالفعل (وسم) بعد حذف المشبه به.

* فيسلس له قيادها: وفى هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم: تشبيه تمثيلى لأنه شبه صورة متعددة الجوانب بصورة مماثلة لا تقل عنها غنى.

* من رمى بالعجب وراء ظهره كناية عن الإهمال.

**الموسيقى الداخلية:**

ما دام النص نثريًا فلا مكان للموسيقى الخارجية فيه وهذه استطاع الكاتب توفير قدر جيد منها من خلال عنايته باختيار الحروف المتجانسة ضمن الكلمة الواحدة، وذوقه المرهف فى اختيار الكلمات ضمن الجملة ورصفها رصفًا يؤدى إلى سهولة القراءة والتناغم بين الجمل ضمن التركيب الواحد، والفقرة عمومًا تبدو وحدة متجانسة، وقد توصل إلى هذا من خلال استناده إلى الترادف والازدواج وهو استعمال كلمات متشابهة فى الوزن والبنية الصرفية لتتعادل المدود وبالتالى ينجم عنها توازن موسيقى لذيذ مثل قوله: فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات... إلى أسباب رزقهم، وأبواب أرزاقهم... موقع أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون.... وللرعية متألفًا، وعن إيذائهم متخلفا... واحذروا متالف السرف، وسوء عاقبة الترف... والأمثلة أكثر من أن تحصى ولكن أشرت لبعضها للقياس عليها.

## * الأسلوب:

استطاع الكاتب توفير الحروف المناسبة ضمن كل كلمة كما أشرت آنفًا. والكلمات سهلة لا تحتاج إلى شرح وهذا أهم شروطها فى الأسلوب الجيد الواضح وجميعها من العربية الفصحي مهما ينفى عنها الهجين و تفاصح بالكلمات الأعجمية كما يفعل بعض أدعياء الأدب المعاصرين.

والجمل كانت فعلية على الغالب لأنها تناسب الأسلوب العربى وتمنحه قوة وجزالة و لم يلجأ للجمل الاعتراضية إلا نادرًا عندما تلجئه الضرورة مثل:

(فاستشعروا ذلكم -وفقكم الله- من أنفسكم....)

ومثل :

(ألا فأمعنوا -رحمكم الله -فى النظر.....)

ولقد زواج الشاعر بين الأسلوبين الخبرى والإنشائى ليبعد الملل عن القارىء وهو حساس وقد منحه الله ذوقًا مرهفًا جعله يتحسس مشاعر قرائه ويلبى رغباتهم.

والحشو غير موجود فلو قرىء النص بعناية لما استطاع أحدنا الاستغناء عن كلمة دون هدم معنى الجملة وضياع الانسجام فى التركيب اللغوى.

و لم يلجأ الكاتب للتقديم والتأخير لأنه يؤدى للغموض وهذا يقلل الاستفادة من الرسالة لذلك كان حرص عبد الحميد على الوضوح الأسلوبى مشهودًا لا يحتاج إلى مزيد من الشرح.

أما المحسنات البديعية فلم يلجأ لها إلا نادرًا واستعمل السجع والازدواج ليزيد من جرس الموسيقى الداخلية، و لم يوظف هذه المحسنات للزينة والتبرج وإنما جاءت فى خدمة المعنى وبقدر معقول زين أسلوبه.

وصفوة القول : لقد أجاد عبد الحميد فى عرض أفكاره من خلال أسلوب سلس واضح جميل وقوى دون تلاعب بالعواطف والخيالات التى لا تحتاجها فى مواضع النصح والوصايا وقد استحق بجدارة قولهم: «بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد».

## خطبة لأبى حمزة الشارى
## بمكة المكرمة

**التعريف بالخطيب:**

هو أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى السلمى من أهل البصرة، ولقب بالشارى، لأنه كان رئيسًا لفرقة من الخوارج، سموا أنفسهم بالشراة، جمع شار، من شرى يشرى، ألا : باع.

سموا بذلك لقولهم: (شرينا أنفسنا فى طاعة الله)، أى بعناها ووهبناها، أخذا من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾، أى لقولهم: (شرينا الآخرة بالدنيا)، أى اشتريناها.

دخل بأصحابه الحجاز فى أواخر العصر الأموى، ثـم قتـل قـرب مكـة المكرمة سنة ١٣٠هـ.

**مناسبة الخطبة:**

دخل أبو حمزة الشارى مكة المكرمـة، علـى رأس جيـش مـن الخـوارج سنة ١٢٩هـ، وكـان أكـثر جنـوده مـن الشـباب، وكـره الـوالى الأمـوى لمكـة المكرمة قتالهم فيها لحرمتها، فأخلاها لهم، فدخلوها بدون قتال.

وكان أبو حمزة قد بلغه أن أهل مكة يعيبون أصحابه، بحداثة أسـنانهم، وخفـة أحلامهـم، فصعـد المنـبر، وخطـب هـذه الخطبـة لـلرد عليهـم، فـأوضح إخلاص أصحابه فى عبادة الله، وحبهم للاستشهاد فى سبيله.

### نص الخطبة

قال أبو حمزة- بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وصلى على نبيه:

أما بعد:

فيا أهل مكة المكرمة، قد بلغنى أنكم تنتقصون أصحابى! تزعمون: أنهم شباب أحداث، وأعراب جفاة!

ويحكم يا أهل مكة! وهل كان أصحاب رسول الله ﷺ- وآله المذكورون فى الخير إلا شبابًا أحداثًا؟! أما والله لعالم بتتابعكم فيما بضركم فى معادكم، ولولا اشتغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم.

شباب والله مكتهلون فى شبابهم، غضيضة عن الشعر أعينهم، بطيئة عن الباطل أرجلهم، أنضاء عبادة، وأطلاح سهر، باعوا أنفسًا تموت غدًا بأنفس لا تموت أبدًا، قد نظر إليهم فى جوف الليل، منثنية أصلاهم بمثانى القرآن الكريم، كلما مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقًا إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه.

قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم، من كثرة الصيام وطول القيام، مستقلون لذلك فى جنب الله، موفون بعهد الله، مستنجزون لوعد الله.

حتى إذا رأوا سهام العدو، وقد فوقت، ورماحه وقد أشرعت، وسيوفه وقد انتضيت، وبرقت الكتيبة، ورعدت بصواعق الموت، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، و لم يستخفوا بوعيد الله لوعيد الكتيبة، ولقوا شبا الأسنة، وشائك السهام، وظبات السيوف، بنحورهم ووجهم وصدورهم.

فمضى الشاب منهم قدمًا، حتى تخلف رجلاه على عنق فرسه، وتختضب محاسن وجهه بالدماء، ويعفر جبينه بالثرى، وتنحط عليه طير السماء، وتمزقه سباع الأرض، فطوبى لهم وحسن مآب.

فكم من مقلة من منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خشية الله، وكم من كف قد أبينت عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعًا وساجدًا، وكم من وجه رقيق، وجبين عتيق، قد فلق بعمد الحديد.

ثم بكى أبو حمزة الشارى: وقال: آه على فراق الإخوان، رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحهم الجنان).

**المفردات اللغوية:**

**تنتقصون أصحابى:** تعيرونهم وتعيبونهم.

**ويحكم:** كلمة عذاب مثل (ويل)، وقيل: ويح كلمة رحمة، وويل كلمة عذاب.

شبابا أحداثا: صغار السن.

معادكم: مبعثكم وعودتكم إلى الله يوم البعث والمعاد.

مكتهلون: الكهل من كان سنة بين الثلاثين والخمسين، والمراد: أنهم أحرزوا رزانة الكهول وسداد رأيهم.

غضيضة عن الشر: لا تنظر إليه.

بطيئة: ثقيلة.

أنضاء: جمع نضو (بكسر النون) وهو المزول.

أطلاح: جمع طلح، وهو كنضور وزنا ومعنى.

جوف: بطن

منثنية أصلابهم: منحنية ظهورهم، والأصلاب واحده صلب وهو عمود الظهر.

مثانى القرآن: القرآن جميعه، وسمى بذلك لاقتران آية الرحمة بآية العذاب.

الشهقة: تردد البكاء فى الصدر.

الزفير: صوت النار.

أكلت الأرض ركبهم: أثرت فيها لكثرة السجود وطوله.

الكلال: التعب والإعياء.

مستقلون لذلك: يعدونه قليلاً

من جنب الله: فى حق الله.

مستنجزون لوعد الله: طالبون تحقيق ما وعد به المتقين من الثواب والمغفرة.

فوقتك أعدت للرمى بتركيبها فى الأقواس.

أشرعت: سددت وصوبت.

انتضيت: استلت وانتزعت من أغمادها.

برقت الكتيبة ورعدت: البرق والرعد ظاهرتان معروفتان فى الطبيعة، وبرق الكتيبة ورعدها: تصوير خيالى لشدة المعركة.

استخفوا: استهانوا.

الشبا: جمع شباة، وهى حد كل شىء.

الظبات: جمع ظبة، وهى حد السيف.

نحورهم: جمع نحر، والنحر هو موضع القلادة من الصدر.

تختضب: تلطخ، والخضاب: ما يختصب به كالحناء ونحوه.

تعفر بالثرى: تصاب بالعفر وهو التراب.

طوبى: اسم شجرة فى الجنة.

مآب: مرجع.

مقلة: عين.

أبينت: فصلت وأبعدت.

الساعد: العضد.

جبين عتيق: كريم نسبه.

فلق: شق.

عمد: عمود.

آه: اسم فعل مضارع بمعنى (أتوجع).

## المعنى الإجمالى

يقول أبو حمزة الشارى:

يا أهل مكة المكرمة، إنى فى دهشة واستغراب لما بلغنى عنكم من انتقاصكم لأقدار أصحابى المجاهدين معى، فعيبهم فى رأيكم أنهم شباب صغار السن، وأعراب جفاة قساة، وأى عيب فى ذلك، تعيرونهم به، وتعيبونهم عليه؟!

ويحكم يا أهل مكة! لقد كان أصحاب المصطفى ﷺ وآله الكراك البررة شبابًا صغار السن، وإنى والله لأعلم بما تفعلون، ويتتابعكم فى اقتراف مالا ينفكم يوم البعث، ولولا اشتغالى بمجاهدة غيركم ما تركت عقابكم على كل هذا.

ثم إن إصحابى شباب صغار فى السن، غير أنهم أصحاب عقول ناضجة، أحرزوا رزانة الكهول، وسداد رأى الشيوخ، وهم أهل عفة وتقوى، فعيونهم لا تنظر إلى الشر، وأقدامهم لا تمشى إلى الباطل، وأبدانهم ضعفت من العبادة والسهر، باعوا أنفسهم فى سبيل الله، وأخلصوا فى عبادتهم له، فرضى الله عنهم، وعما يتقربون به إليه.

ثم إنهم يقضون ساعات الليل فى قراءة القرآن الكريم خاشعين متدبرين، فكلما مر أحدهم بآية قرآنية فيها ذكر الجنة بكى من شدة شوقه إليها، وإذا مر بآية فيها ذكر النار فزع خوفًا منها، وكأن صوت العذاب فى أذنيه.

ثم إن عبادتهم لربهم متصلة ليلاً ونهارًا، يقومون الليل مصلين، حتى أثرت الأرض فى أنوفهم وجباههم، وأيديهم وأرجلهم، ويقضون النهار صائمين، حتى أصفرت ألوانهم، ونحلت أبدانهم، ومع كل هذا، يرون أنهم مقلون فى عبادة ربهم، مقصرون فى حقه، وإنهم ليحرصون على الوفاء بعهده، ويطلبون منه تحقيق وعده لمن أطاعوه وعبدوه.

وعلاوة على كل هذا، فإنهم حريصون على الاستشهاد فى سبيل الله، استهانة بالموت، وأملاً فى وعد الله بالجنة، فإذا أبصروا الأعداء قد أعدوا سهامهم للرمى، واستلوا سيوفهم للضرب، وصوبوا رماحهم إلى الصدور، مضى الشاب منهم فى شجاعة وبسالة، يقاتل ويجاهد وهو متشبث بمكانة فوق ظهر جواده، وما يزال كذلك، حتى يستشهد، ويخر صريعًا فى ميدان الجهاد، تلطخ الدماء وجهه الوضيىء، ويعفر التراب جبينه الطاهر، فينحط عليه الطير يخطفه، وتنقض عليه السباع تنهشه، فطوبى لهم من ربهم، وحسن مآب إليه سبحانه.

فكثيرًا ما ترى عين شهيد طالما بكت من خشية الله قد صارت فى منقار طائر، وكثيرًا ما ترى يدا كان يعتمد عليها صاحبها فى الركوع والسجود قد انفصلت عن معصمها، وكم من وجه رقيق كريم، وجبين عتيق أصيل قد مزقه الحديد، فآه منى على فرقة الإخوان، ورحمة من الله على تلك الأبدان، ومتع الله أرواحهم بنعيم الجنان.

## الدراسة الفنية والتحليل النقدى

كان الخوارج -على كثرة فرقهم- من أقوى الأحزاب السياسية والطوائف المذهبية فى عصر بنى أمية، وقد ظلوا شوكة فى جنب الأمويين،

يهددونهم ويحاربونهم حربًا تكاد تكون متواصلة فى شدة وشجاعة نادرة، وأشرفوا فى بعض مواقفهم على القضاء على الدولة.

وقد امتازوا بشدة التدين، والإخلاص فى العقيدة، والشجاعة النادرة، والتعصب للعربية الخالصة، لا يعرفون التقية، ولا السرية التى غلبت على الشيعة، وهذا ما جعل أدبهم قويًا لحماستهم، وقوة شعورهم، وجديدًا لإنصرافهم عن التقليد إلى تصوير نفوسهم الجديدة، فوق تأثرهم بالإسلام، والحياة السياسية الحاضرة.

كان أدبهم صورة واضحة المعالم بارزة القسمات لمذهبهم الدينى وحزبهم السياسى، احتفظوا فيه بطبعهم البدوى المهذب، و لم تفسده تقاليد الحضارة المترفة، وغلبت عليه المسحة الثورية التى تقوم على أن الخلافة حق مشترك بين المسلمين أجمعين، أحرارًا وعبيدًا، فليس بلازم أن يكون خليفة المسلمين عربيًا قرشيًا كما قال الزبيريون، ولا هاشميًا كما قالت الشيعة، ولا أمويًا كما حرص الأمويون.

فأدب الخوارج أدب ثورى بكل ما تعنيه هذه الكلمة، ولا غرو فقد جعلوه خدمة لمذهبهم، وثمرة لعقائدهم، و لم تحركهم إليه العصبيات القديمة القائمة على الأخذ بالثأر، وإنما حركتهم إليه عصبيات سياسية دينية، مبعثها الإيمان والتقوى، والجهاد فى سبيل الله مستعذبين الموت، غير آبهيم بالحياة كى يفوزوا بنعيم الجنة والرضا من الله.

غير أنهم -بدون شك- قد غالوا فى نضالهم، فاستحلوا دماء إخوانهم المسلمين، وبذلك مزقوا الجماعة الإسلامية، وظلت عقيدتهم كأنها مبدأ ثورى يدعوهم دائمًا إلى الحرب والقتال.

وعلى أية حال، فـإن أدبهـم -فـى تقديرنـا- كـان أدبًـا إسـلاميًا قويًـا جديدًا، وقد قال فيه عبيد الله بن زياد، وقد كلم فـى شـأنهم: «لكـلام هـؤلاء أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع»!

وأدب الخوارج يتسم بصفة عامة بتخير الألفاظ، وفصاحـة الأسـلوب، وقوة السبك، وصـدق الشـعور، وقـوة العقيـدة، وسـلامة الخلـق والطبـع، مـع الاستفادة بالثقافة الإسلامية الرفيعة، ولاسيما القرآن الكريم والسنة النبوية.

ومن أروع النماذج النثرية التى نقرؤها فـى هـذا الأدب، تلـك الخطبـة التى ألقاها (أبو حمزة الشارى) فى مكة المكرمة، فهى لون من خطبهم السياسية الجامعة بين التصوير الخيالى والتصوير الواقعى، مما يحقق التأثير القوى، والإمتـاع البالغ فى نفوس السامعين والقراء، وإنها لتعبر -بحق عن امتزاج أفكار أبى حمزة بعاطفته القوية الصادقة الثائرة.

لقد دافع فيها -كما رأينا- عن أصحابه من شباب الخوارج، بأسلوب منطقى فى الرد على أهل مكة المكرمة، وعاطفى فى تصوير تقوى هؤلاء الفتية، وإخلاصهم لله، وفى تمجيد شجاعتهم واستهانتهم بالموت.

وهى أفكار -كما رأينا- مرابة متصلة، فيها تحليل وتفصيل، ووضـوح وإقناع، ثم مبالغة استدتها الظروف التى ألقى فيهـا الخطبـة، فقـد كـان انفعالـه قويًا حادًا، جعله يتدفق ويمتد، وهذه شنشنة معروفة، وسنة مألوفـة فـى خطـب الخوارج.

ولما كان الخيال وليد العاطفة، ومرتبطًا بأحاسيس الأديب، فقد جاءت صوره الجزئية فى الخطبة مؤكدة وموضحة لما احتوته من أفكار، ومحققة للمزيد من التأثير والإمتاع والإقناع.

ومن هذه الصور -مثلاً-:

١- قوله في وصف أصحابه: (مكتهلون في شبابهم) كناية عن الرزانة وسداد الرأى.

٢- "غضيضة عن الشر أعينهم" كناية عن العفة.

٣- "بطيئة عن الباطل أرجلهم" كناية عن اجتناب الذنوب.

٤- "قد نظر الله إليهم" كناية عن رضاه عنهم.

٥- "منثنية أصلابهم بمثانى القرآن الكريم" كناية عن مداومتهم لتلاوته.

٦- "شهق شهقة" كناية عن شدة الفزع.

٧- "كأن زفير جهنم فى أذنيه" تشبيه لتقرير الحال,

٨- "وقد أكلت الأرض جباههم...إلخ" استعارة مكنية تخيل الأرض كائنًا حيًا يأكل جباههم وأيديهم وركبهم وأنوفهم، وهى توحى بكثرة صلاتهم، وطول سجودهم واستغراقهم فيه.

٩- "رعدت الكتيبة وبرقت بصواعق الموت": استعارة مكنية تخيل الكتيبة المعادية عندما تشتد المعركة، فتبرق السيوف، ويعلو صليل السلاح، وصرخات المتحاربين، فتطير القلوب، بالطبيعة الثائرة، حيث يلمع البرق، من بين الغيوم، ويقصف الرعد، وتنزل الصواعق، فتفزع النفوس، وهذه صورة خيالية رائعة، تعبر -بدون شك- عن فداحة القتال- وهول المعركة، ومع هذا كله لا يفزع أصحاب أبى حمزة، ولا يهابون الموقف.

١٠- "تختلف رجلاه على عنق فرسه": كناية عن الجهاد فوق الجواد، مع التشبث به، حتى آخر لحظة فى الحياة.

١١- "تختضب محاسن وجهه بالدماء.... إلخ" صورة حسية واقعية مؤثرة رسمها أبو حمزة الشارى لميدان القتال، حيث نرى وجوهًا وضيئة ملطخة بالدماء وجباها مشرقة معفرة بالتراب، وجثثًا هامدة تمزقها سباع الأرض، وتتخطفها

طيور السماء، فهذه عين فى منقار طائر، وتلك راحة منفصلة من عضدها، وذلك وجه ممزق، وهذا جبين مشقوق.

وهكذ يتضح -لنا- من هذه الأمثلة مقدرة الخطيب على استخدام التصوير الخيال فى وصف أصحابه من فتية الخوارج، وكيف جمع بين هذا التصوير، والتصوير الواقعى فى رسم الصورة الكلية لهم!

أما الجانب التعبيرى فى الخطبة، فواضح مدى اعتماده على الألفاظ المنتفاة الموحية ذات الجرس القوى، مثل:

(فوقت، أشرعت، انتضيت، برقت، رعدت، تعفر، أسرع، تنحط، تمزق، أبينت، فلق) فكل هذه الألفاظ وما شابهها فى النص تشارك فى رسم جو المعركة، والإستهانة بالموت.

ولننظر -أيضًا- إلى تلك الألفاظ والعبارات:

(نظر الله إليهم، منثنية أصلابهم، بكى، شهق شهقة، وصلوا كلال ليلهم، أنضاء عبادة، أطلاح سهر، مصفرة ألوانهم، ناحلة أجسامهم) فكل هذه الكلمات المنتقاة بعناية واضحة تعبر عن خشوع الفتية وتقواهم وإخلاصهم فى العبادة، ومداومتهم عليها.

وكم كان الخطيب بارعًا فى تصدير الخطبة -بعد التقديم لها- بقوله: «يا أهل مكة المكرمة»، فإنه أسلوب إنشائى طريقة النداء المشعر بالدهشة لتلك التهمة غير الصحيحة، ولذلك نرى أبا حمزة يأتى بعد ذلك بالمضارع (تزعمون)، المشعر بحرصهم على ترديد هذه التهمة إلى اللحظة التى وقف فيها أبو حمزة بين أيديهم خطيبًا.

وكم كان رائعًا -كذلك- حين ساق لأهل مكة - فى الرد عليهم - دليلاً مقنعًا ملموسًا من واقع التاريخ الإسلامى، فإن آل النبى -ﷺ وأصحابه

كانوا شبابًا، و لم يعبهم ذلك، وكذلك شباب الخوارج، فإنهم يشبهون هؤلاء الكرام البررة، صغار فى السن والبنية، كبار فى العقل والدين.

وكم كان أبو حمزة قوى التأثير فى رسم ما يصير إليه أصحابه، وهم أشلاء ممزقة، بألفاظ وعبارات تملأ النفس ألمًا ولقد كرر "كم" الخبرية المشعرة بالكثرة من ناحية، والمؤكدة للشعور بالألم من ناحية أخرى، على أنه قد أتى بلفظة (آه) المعبرة عن تفجعه وتوجعه على فراق هؤلاء الشهداء، ثم ختم الخطبة بطلب الرحمة لهم ، وسكنى الجنة.

هذا وقد جاءت عبارات الخطبة كلها رصينة محكمة متينة، تراوح بين الطول والقصر، والسجع والترسل والازدواج والترادف، مما خلق فى النص موسيقى تصويرية رائعة.

ومن المحسنات البديعية الجميلة فى الخطبة: الطباق بين: (شباب ومكتهلون)، وبين (تموت ولا تموت)، وبين (الجنة والنار)، وبين (الليل والنهار)، وبين (وعيد ووعد)، وبين (استخفوا و لم يستخفوا)، وبين (السماء والأرض)، وبين (راكعًا وساجدًا).

وكذلك من المحسنات: مراعاة النظير بين (أعينهم وأرجلهم)، وبين (الصيام والقيام)، وبين (ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباهم)، وبين (سهام ورماح وسيوف)، وبين (برقت ورعدت)، وبين (وجه وجبين) وما شابه ذلك فى النص.

ومن المحسنات أيضًا: السجع الذى تطرب له الأذن وتسعد به النفس بين و(أعينهم وأرجلهم)، وبين (فوقت وأشرعت وانتضيت)، وبين (رقيق وعتيق)، وبين (الإخوان والأبدان والجنان).

وكل هذه المحسنات وأمثالها فى الخطبة، قد جاءت عفو الخاطر، ليس فيها تكلف ولا صنعة، فأوضحت الأفكار، وقوت المعانى، وعبرت عن إحساس الخطيب، وأشاعت فى الخطبة جوًا من الموسيقى والنغم الممتع.

وقد نوع أبو حمزة فى الأساليب بين الخبر والإنشاء، فمن الأساليب الإنشائية قوله: (هل كان أصحاب رسول الله -ﷺ- وآله المذكورون فى الخير إلا شبابًا أحداثًا)؟! فهذا الأسلوب إنشائى أداته الاستفهام، والغرض منه: النفى: وقوله: (رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحهم الجنان) جملتان خبريتان لفظًا إنشائيتان معًا، والغرض منهما: الدعاء بالرحمة والجنة.

أما الأسباب الخبرية فكثيرة، ومتنوعة الغرض، فمنها ما هو للمدح، ومنها ما هو لإظهار الحزن والألم، ومن السهل على الدارس معرفة كل منها.

وفضلاً عن هذا، فإن شخصية الخطيب تبدو -بوضوح- من خلال هذه الخطبة، فهو زعيم، قائد، شجاع، قوى العقيدة، ثائر النفس، معتز بأصحابه، مدافع عنها، وفى لمن استشهد منهم، صادق العاطفة، مرتب الفكر، فصيح اللسان، بارع الخطابة، ملتزم بمنهجه القائم على مقدمة، وموضوع، ثم خاتمة.

كذلك تبدو خصائص أسلوبه من خلال الخطبة فهو قوى اللفظ، متين العبارة، واضح المعانى، مترابط الأفكار، رائع الصور، طبيعى المحسنات، منوع الأسلوب، صادق الشعور، ثورى المسحة، دينى النزعة إلى درجة العنف والتطرف.

وأخيرًا، فإن أثر البيئة فى الخطبة واضح وضوح الشمس فى رابعة النهار:

إذ هي تصور طرفًا من الصراع العنيف بين الأحزاب، والاتجاهات السياسية في عصر بني أمية.

كما تدل على إعجاب الشباب -في هذا العصر- بحركة الخوارج، ومبادئهم وسماتهم التي سبق التلميح لشيء منها في صدر هذا التحليل.

والخطبة -أيضًا- تشير إلى أثر التربية الإسلامية العميقة، والإيمان بالمبادئ في نفوس الشباب، وإلى أن حزب الخوارج -على تعدد فرقه- كان يعنى عناية كبيرة بهذه الناحية، فيعد زعماءه الشباب من صغرهم إعدادًا إسلامًا متينًا، كفل لحركتهم الاستمرار سنين طويلة.

ويتجلى أثر البيئة كذلك في نظام الجيش، وبعض الأدوات القتالية التي أشارت إليها الخطبة، كالسهام، والرماح والسيوف وعمد الحديد، والخيل، والكتيبة.

أما أثر الثقافة الإسلامية فيبدو في تأثر الخطيب بالقرآن الكريم، حين قال: «قد نظر الله إليهم في جوف الليل منثنية أصلابهم بمثاني القرآن الكريم»، فهو هنا ناظر إلى قول الله تعالى: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ وحين قال: «قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباهم»، فهو -هنا- ناظر إلى قول الله تعالى: ﴿تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود﴾.

## الحزين الكناني يمدح الإمام زين العابدين

### مناسبة القصيدة وناظمها

ذكر المؤرخون: أن هشام بن عبد الملك الأموى لما حج فى أيام أبيه، طاف بالكعبة المشرفة، وحاول أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه، فلم يقدر على ذلك لكثرة الزحام. فنصب لـه كرسى، وجلس عليه ينظر إلى الناس، ومعه جماعة من أعيان الشام.

فبينما هو كذلك إذ أقبل الإمام زين العابدين على بن الحسن بن على ابن أبى طالب، فطاف بالكعبة، فلما انتهى إلى الحجر الأسود ليستلمه، تنحى له الناس، حتى استلم، فقال رجل من أهل الشام لهشام: من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبة؟

فقال هشام: لا أعرفه؛ مخافة أن يرغب فيه أهل الشام، وكان الفرزدق حاضرًا، فقال: أنا أعرفه، ثم اندفع فأنشد هذه القصيدة التى أغضبت هشاما، فأمر بحبسه بين مكة المكرمة والمدينة المنورة.

هكذا يقول كثير من شيوخ المؤرخين للأدب فيما سجله ابن خلكان فى (وفيات الأعيان)، وروته بعض الأخبار عن (الشريف الرضى زعيم العلوية فى زمنه، محاولاً أن يزج الفرزدق فى جملة شعرائهم والمنافحين عنهم.

والواقع: أن هذه القصيدة مختلف فى صاحبها، وفيمن قيلت فيه، فبعض الرواة ينفيها عن الفرزدق البتة، ويرويها لداود بن سالم فى ختم بن العباس، وبعضهم يرويها لخالدين يزيد فى ختم هذا، وكان خالد مولى له، وآخرون يروونها للحزين الكنانى فى عبد الله بن عبد الملك، وهو عند عبد العزيز بن مروان فى مصر.

ويؤكد أبو الفرج الأصفهاني فـي كتابـه (الأغـاني): أن البيـت الثـاني عشر: (بكفه خيزران... إلخ)، والبيت الذى قبله: (يغضن حياء... إلخ) للحزين الكناني، والبيت الثالث عشر: (يكاد يمسكه.... إلخ) لداود بن سـالم فـى خثـم بن العباس. وينكر أبو الفرج نسبة القصيدة للفرزدق.

ولكن ما حققه (المزباني) في (معجم الشعراء) ينتهي إلى أنهـا للحزيـن الكناني في مواجهة عبد الله بن عبد الملك، لا في مواجهة هشام.

ومن هنا، فنحن نرى أن قائل القصيـدة هـو (الحزيـن الكنـاني)، وأنهـا أنشدت في مواجهة عبد الله بن عبد الملك، وأن الممدوح بها هو زين العابدين علي بن الحسين، **فقد ورد في بعض الروايـات هـذا البيـت السـاقط مـن روايـة القصيدة في ديوان الفرزدق:**

**هذا علي رسول الله والده          أمست بنور هداه تهتدي الأمم**

**وهناك العديد من الأسباب النافية لصحة نسبة هذه القصيدة للفـرزدق: فمن ذلك:**

**١- أننا لا نجد في ديوان الفرزدق -على ضخامته- قصيدة علوية فـي آل البيت سوى هذه القصيـدة، فـي حـين نجـد أكـثر مـن خمسـين قصيـدة فـي الأمويين وعمالهم وولاتهـم، فكيـف نوفـق إذن بـين هـذا وبـين رأي الشـريف الرضي وغيره ممن ينسبون القصيدة للفرزدق، ثم يتخذون منهـا دليـلاً علـى أنـه كان متشيعًا في السر لعلي وبني هاشم!**

٢- أن نسج هذه القصيدة يبتعد بها عن الفرزدق، فهي تخالف نسجه، كما تخالف نفسيته؛ إذ كان لا يتعصب لشيء سوى قبيلته وآبائـه، وقـد مـدح بني أمية بأخرة، أما ولاة العراق فكان إذا خاف بطشهم مدحهم، فـإذا اطمـأن وسكن روعه هجاهم، ولاسيما إذا أظهروا عصبية ضد قبيلة تميم.

٣- أن جبنه الرعديد يمنعه أن يجهر بالقول هكذا، وقد أُغرق فى مدح الأمويين إغراقًا جاوز به قدر الطاقة، كقوله -مثلاً- فى يزيد بن عبد الملك، ولهوه ومجونه معروف:

**ولو كان بعد المصطفى من عباده نبى لهم منهم لأمــر العزائم**

**لكنت الذى يختــار: ا لله بعده لحمل الأمانات الثقال العظائم**

**ورثتــم خليـل ا لله كل خـزانة وكل كتــاب بالنبــوة قائــم**

فصاحب هذه الأبيات لا تبلغ به الحماسة لزين العابدين أن يقول ما قاله الحزين الكنانى؟ والفرق بين الشاعرين فرق ما بين المأجور المتطلع والغيور الزاهد، فكيف يلتقيان؟!!

## القصيدة

قال الحزين الكناني يمدح الإمام زين العابدين:

| | |
|---|---|
| ١-هذا الذى تعرف البطحاء وطأتـه | والبيـت يعرفـه والحـل والحـرم |
| ٢-هـذا ابـن خـير عبـاد ا لله كلهـمُ | هـذا التقـى النقـى الطـاهر العلـم |
| ٣-هذا ابن فاطمـة إن كنـت جاهلـه | بجـده أنبيـاء ا لله قـد ختمـوا |
| ٤-وليس قولك: من هـذا ؟ بضـائره | العرب تعرف مـن أنكـرت والعجـم |
| ٥-كلتـا يديـه غيـاث عـم نفعهمـا | يسـتوكفان، ولا يعروهمـا عـدم |
| ٦-سهل الخليقة، لا تخشى بوادره | يزينه اثنان: حسـن الخلْـق والشيم |
| ٧-حمال أثقال أقـوام، إذا افتدحـوا | حلـو الشمائل، تحلـو عنـده نَعَـمُ |
| ٨-ما قـال: لا، قـط إلا فـى تشـهده | لـولا التشـهد كـانت لاءه نعـم |
| ٩-عم البرية بالإحسان، فانقشعت | عنها الغياهب والإمـلاق والـعدم |

## اللغويات

١- البطحاء: أصله المسيل الواسع فيه دقاق الحصى. وقيل: كل موضع متسع. وهو موضع بعينه قريب من ذى قار. وبطحاء مكة وأبطحها، وكذلك بطحاء ذى الحليفة.

وطأته: موضع قدمه.

البيت: الكعبة

الحل: ما جاوز الحرم من الأرض.

الحرم: ما لا يحل انتهاكه، ويراد به: مكة المكرمة وما جاورها من أرض.

٢- العلم: كبير القوم وسيدهم.

٣- فاطمة: الزهراء بنت الرسول -صلى الله عليه وسلم- وزوج الإمام على جد الإمام زين العابدين.

٤- بضائره: مضر به، أى محطّ من قدره.

٥- غياث: غوث وعون.

عمّ: شمل الناس عامة.

استوكف: استقطر الماء واستدعى جريانه.

عزاه: ألمّ به.

العدم: الفقر.

٦- الخليقة: الطبع والسجية.

البوادر: جمع بادرة، وهى ما يبدر من الإنسان عند غضبه.

الشيم: الأخلاق والمفرد: شيمة.

٧- افتدحوا: أُثقِلوا بالمصائب

الشمائل: المفرد شميلة، وهى الطبع والخصلة.

٨- التشهد: ما يقوله المسلم من شهادة بقوله: أشهد أن لا إله إلا الله.

٩- عم البرية: شمل الخليق بإحسانه.

انقشعت: انجلت

الغياهب: الظلمات، والمفرد: غيهب بمعنى ظلمة.

الإملاق: الفقر المدقع.

## المعنى الإجمالى

يذكر الشاعر: أن الإمام زين العابدين علم مشتهر يعرفه أهل الدنيا قاطبة، وأنه ممتثل لأوامر الله، مجتنب نواهيه، نقى القلب والسريرة، طاهر اللسان والقلب والبدن، حفيد فاطمة الزهراء، وحفيد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم الأنبياء والمرسلين، وأشرف الخلق أجمعين.

فلا يليق بأحد أن يتجاهله، أو ينكره ويقول -إذا رآه- من هذا؟ فإن مثل هذا التجاهل لا يحط من قدره العظيم، ولا يقلل من منزلته السامية، فهو علم ذائع الصيت، تعرفه الدنيا كلها، ولا فرق فى معرفة الناس إياه بين عرب وعجم.

على أنه غوث وعون لكل إنسان، كثير العطاء، غزير الكرم، ومع هذا، فإن عطاءه لا يقل، وجوده لا يضمحل، والفقر لا يعرف الطريق إليه. كما أنه حليم لا يخشى غضبه، سهل الطبع والسجية، جامع بين حسن الخلق (بفتح الخاء) وجميل الخلق (بضمها). حمال لما يثقل الناس من مصائب، حلو الطبع، جميل الخصال، يساعد أولئك الذين يعانون فى الحياة، ويجد اللذة والمتعة فى الإجابة بـ (نعم) على كل طالب معونة. وإنه ليحرص على التفوه دائمًا بحرف الجواب هذا، حتى إنه لم يؤثر عنه أنه قال إطلاقًا: (لا)، اللهم إلا وهو ينطق بكلمة التوحيد الخالدة (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله)، فهو لا يعرف أن يقول: (لا)، إلا حينما يتلو هذه الشهادة، ولولاها لكانت لاءه نعم.

وفضلاً عن هذا؛ فإن إحسانه قد شمل الخليقة كلها، ومن هنا: انجلت عنها الظلمات، وأمحت من حياتها مظاهر الفقر والعدم.

١٠- إذا رأتــه قريــش: قــال قائلهــا إلى مكـارم هــذا ينتهـى الكـرم

١١- يغضى حياء، ويغضى مـن مهابتـه فمـا يكلـم إلا حـين يبتسـم

١٢- بكفـه خـيزران ريحـه عبـق من كف أروع، فى عرنينـه شمم

١٣- يكـاد يمسـكه عرفـان راحتـه ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

١٤- ا لله شـرفه قدمـا، وعظمـه جرى بذاك لـه فـى لوحـه القلم

١٥- أى الخلائق ليست فـى رقـابهمُ لأوليـة هـذا، أولــه نِعَـمُ

١٦- مـن يشكر ا لله يشـكر أوليـة ذا فالدين من بيت هـذا نالـه الأمم

١٧- ينمى إلى ذروة الدين التى قصرت عنها الأكف، وعن إدراكها القدم

١٨- من جـده دان فضـل الأنبيـاء له وفضـل أمتـه دانـت له الأمـم

## اللغويات

١٠- قريش: اسم للقبيلة العربية التى سكنت مكة، وكان منها الرسول صلى اله عليه وسلم، وقد أطلق هذا اللفظ أول ما أطلق على (النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة)، وقيل: على (فهر بن مالك بن النضر).

١١- يغضى: يخفض الطرف.

١٢- العبق: الذى يفوح بالشذا والطيب.

الأروع: يروعك حسنه وشجاعته.

العرنين: الأنف.

الشمم: ارتفاع أرنبة الأنف مع حسنها واستوائها.

١٣- الراحة: الكف.

الركن: الجانب الأقوى.

الحطيم: ما بين ركن الكعبة وبابها، وقيل: جدار الكعبة.

يستلم: يلمس للتبرك.

١٤- قدمًا: قديمًا

اللوح: الكتاب الذى يسطر القضاء والقدر لكل إنسان.

١٥- الخلائق: جمع خليقة بمعنى الخلق والمخلوق.

١٦- الدين: هنا خاص بالإسلام، فلا يندرج فيه الملل والنحل الأخرى، كاليهودية والمسيحية.

١٧- ينمى: ينسب.

قصرت عنها الأكف: لم تصل إليها، والأكف: جمع كف.

١٨- دان: خضع.

## المعنى الإجمالى

يذكر الشاعر فى هذه الأبيات: أن الإمام زين العابدين أكرم الناس، فإلى مكارمه ينتهى الكرم، وتلك حقيقة لاينكرها أحد، فكل قرشى ينطق بها، ويعترف، كلما رأى زين العابدين.

هذا الذى يتسم بشذة الحياء، فيخفض طرفه دائمًا، غير أن الناس -لعظم هيبته- لا يرفعون إليه أبصارهم إلا إذا ابتسم لها إيناسًا. وإن الناظر إليه ليروعه حسنه وشجاعته، وارتفاع أرنبة أنفه مع استوائها وجمالها، وبكفه خيزران تفوح بالشذا والطيب، وإن حجر الكعبة المشرفة ليعرف كف الإمام زين العابدين، فيكاد يحبسه عنده حباله، وشغفا به.

وعلاوة على هذا؛ فإن الحق -جل وعلا- قد شرف الإمام زين العابدين، وعظمه وقدره، وكتب له تلك الدرجة العالية منذ القدم. وإنه لمن آل بيت النبى الطاهر، الذى بعث بالحنيفية السمحة، والآلاء العظيمة، فنالت الأمم الدين الحنيف من بيته، وشكرت الله على تلك النعمة الجليلة، فواجب على من يشكر ربه على ذلك، أن يشكره أيضًا على أولية زين العابدين. هذا الذى ينسب إلى أعلى قمة إسلامية لم تستطع الوصول إليها الأكف، وعجزت عن إدراكها الأقدام. وإن جد زين العابدين لأمه لهو الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام... هذا الذى خضع فضل كل نبى له، وفضله الله على سائر المرسلين، كما فضل أمته على جميع الأمم.

١٩-مشتقة من رسول الله نبعته طابت مغارسه والخيم والشيم

٢٠- ينشق ثوب الدجى عن نور غرته كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم

٢١- من معشر حبهم دين، وبغضهم كفر، وقربهم منجى ومعتصم

٢٢- مقدم بعد ذكر الله ذكرهم في كل بدء، ومختوم به الكلم

٢٣- إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل: "من خير أهل الأرض"؟قيل: همُ

٢٤- لا يستطيع جواد بعد جودهمُ ولا يدانيهُم قوم، وإن كرموا

٢٥- هم الغيوث، إذا ما أزمة أزمت والأسد أسد الشرى، والبأس مُحْتَدَمُ

٢٦- لا ينقص العسرُ بسطا من أكفهمُ سيان ذلك: إن أثروا وإن عدموا

٢٧- يستدفع الشر والبلوى بحبهمُ ويسترب به الإحسان والنعم

١٩- نبعته: شجرة تصنع منها القسى، وهى أجود الشجر، والمقصود: أصله الكريم.

الخيم: السجية والطبيعة.

٢٠- الدجى: الظلام. العزة: مقدم شعر الرأس.

تنجاب: تنكشف

٢١- معشر: قوم

معتصم: ملجأ

٢٢- ذكرهم: الصلاة والتسليم على سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- آل بيته الطاهرين.

٢٣- أئمتهم: جمع إمام، وهو من يؤتم ويقتدى به فى الدين والتقوى وفعل الخيرات.

٢٤- جواد: فعال من الجود وهو الكرم.

لا يدانيهم: لا يصل إليهم، ولا يرقي.

٢٥- الغيوث: الذين يغيثون الناس

الأزمة: الشدة.

أزمت: اشتدت وصعبت

الشرى: بالفتح والقصر، داء يأخذ فى الرجل، أحمر كهيئة الدرهم. وقال بعضهم: الشرى: مأسدة بعينها. وقيل: شرى الفرات: ناحيته، به غياض وآجام تكون فيها الأسود، البأس: الشدة والحرب.

٢٦- العسر: ضد اليسر، فاليسر هو السعة والغنى، والعسر: هو الفقر والضيق. أثروا: اغتنوا. عدموا: افتقروا. يستدفع الشر: يبعد عنه. يسترب: يستزاد.

يذكر الشاعر أن ممدوحه زين العابدين: ذو اصل كريم، وسجايا طيبة، وأخلاق حميدة، وما هذا إلا لأن شجرته طيبة المغارس، إذ أنها من أصل شجرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وإن ستائر الظلمات لتنشق عن ذلك النور المشرق الذي يتلألأ من مقدمة شعر رأسه، وكأنه الشمس في انكشاف الظلمات بإشراقها. كما أنه سليل قوم حبهم دين وإيمان، وبغضهم كفر وإشراك، وقربهم منجى وملجأ، وذكرهم تالٍ لذكر الله، فما من مسلم يذكر ربه في بدء الكلام وختامه، إلا ويصلي ويسلم -بعد هذا الذكر- على النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وآله.

على أن الناس إن عدوا أهل التقى وجدوا آل بيت النبي -ومنهم زين العابدين- هم الأئمة الذين يهتدى بهم ويقتدى، وكذا لو سأل سائل عن أفضل سكان الأرض، لكان الجواب: هم ولا أحد سواهم، فليس ثمة قوم من الأقوام يصل إلى منزلة آل بيت النبي عليه السلام، مهما علا وارتفع شأن هذه الأقوام، ولا يداني آل بيت النبي أحد في الجود والكرم، ومهما كثر جود الكرام، وتعدد عطاؤهم وإحسانهم، فإنهم لن يستطيعوا بلوغ درجة آل البيت. أولئك الذين يغيثون الناس إذا ما اشتدت الأزمات، وحلت النكبات، وعظمت المصائب، ويتحلون بالقوة والشجاعة وكأنهم أسد الشرى إذا ما خاضوا الوغى، واحتدم القتال، واشتد البأس... أولئك الذين بلغوا في سخائهم أعلى المراتب، فكفوفهم مبسوطة دائمًا بالعطاء، سواء أكانوا في شدة، أم كانوا في رخاء. وإن حبهم لشيء عظيم مثمر، فبه تبعد المصائب، ويستدفع الشر، وتستزاد النعم والإحسان

## الدراسة الفنية والتحليل النقدى

لاشك أن (المدح) غرض أصيل من أغراض الشعر العربى، فقد عنى الشعراء العرب منذ العصر الجاهلى بإبراز فضائل من يمدحونه، وتعداد محامده، وأكثروا فى قصائدهم من الثناء على ما يجدون فى ممدوحيهم من كريم الخصال ورفيع الأخلاق، وسامى القيم والمبادىء، من كرم وشجاعة، ومروءة، وعزة وإباء ونجدة، ورعاية للجار وإكرام للضيف ووفاء بالعهد، وما شابه ذلك من الصفات التى يعتز بها العربى، وترفع من يوصف بها، أو يشتمل عليها.

وإذا كان المديح فى العصر الجاهلى قد دار حول الصفات الجسمية والنفسية المحببة إلى النفوس من امتداد قامة، ووسامة وجه، ومن طيب أصل، وعراقة نسب، ونحو ذلك، فإن المدح -فى عصر صدر الإسلام- ظل يدر حول هذه المعانى الفاضلة، وزاد الشعراء الذين مدحوا النبى -صلى الله عليه وسلم- وكبار الصحابة، المدح بالمعانى المتصلة بالعقيدة الدينية من نصرة للإسلام، وهداية إلى طريق الخير، وإرشاد إلى المبادىء القويمة، وجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الحق، وتخلق بأخلاق القرآن الكريم، وتمسك بسنة سيد المرسلين -صلى الله عليه وسلم- وما إلى ذلك.

وحينما جا العصر الأموى ظهر (الشعر السياسى) الذى دار حول قضية الخلافة وصراع الأحزاب عليها، واختلاف الآراء حولها، وكانت هذه القضية مصدر مدائح كثيرة ذات طابع جديد، من جانب شعراء الأمويين الذين يمدحون خلفاء الحزب الحاكم، ومن جانب شعراء الأحزاب الأخرى الذين يمدحون قادة هذه الأحزاب.

فلم تكن هذه الأحزاب السياسية (من أمويين وشيعة وخوارج وزبيريين) تقتتل بالسيوف وحدها، وإنما كانت تقتتل بالألسنة كذلك، فكان

لكل حزب أدباؤه الذين يدافعون عنه، ويهاجمون خصومه، وتردد فى أدب كل حزب محاسن هذا الحزب، ومساوىء الأحزاب الأخرى، ومعايب أصحابها.. ومن هنا برز أثر الحزبية فى كثير وكثير من أدب هذا العصر.

ولابد أن نتذكر دائمًا أن المعانى الإسلامية قد دخلت إلى قصيدة المدح فى العصر الأموى، وسارت جنبًا إلى جنب مع تلك المعانى التقليدية الموروثة التى كان المدح القديم يعتمد عليها، فقد تأثر الشعراء بالإسلام، وبظروف الحياة العربية الجديدة، وما حدث فيها من انقلاب فى نظام الدولة، وظهور الخلافة، وتطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

ولقد تحول المدح -فى كثير من جوانبه- إلى تصوير الفضيلة الدينية فى الممدوح، وقد وثق هذا التصوير المعتقد السائد من أن الحكم والدين كانا مرتبطين ارتباطًا وثيقًا.

كذلك لابد أن نتذكر: أن حزب العلويين -الذين سموا فيما بعد باسم الشيعة- كان من أقوى الأحزاب المعارضة لحكم بنى أمية، تارة سرا، وتارة جهرا، وتدور النظرية السياسية لهذا الحزب على أن على بن أبى طالب وأبناءه وأحفاده من بعده هم أهل الخلافة الحقيقيون، وأصحابها الشرعيون؛ لأنهم آل الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولاحق فيها لغير العلويين، وأن الأمويين اغتصبوها منهم، وينبغى أن ترد عليهم.

من هنا كانت قلوب الأدباء العلويين تمتلىء بالكراهية والغيظ والحقد على بنى أمية، وتمتلىء -فى الوقت ذاته بالحب لآل البيت حبا ملك على نفوسهم أهواءها وعواطفها وإحساساتها ومشاعرها.

والقصيدة التى سبق عرض أبياتها ذات دلالات قوية على شدة حب ناظمها لزين العابدين على بن الحسين ولآل البيت جميعًا، ويكفى أنه قد صرح

فيها بأن زين العابدين من معشر يعد حبهم من الدين، وأن بغضهم كفر، وقربهم منجى ومعتصم بشريعة الله، فمن أحبهم بعد عن السوء والبلاء، واستزاد من الإحسان والنعم.

فالقصيدة إذن من شعر المديح السياسى الذى قيل فى آل البيت، حبًا لهم، وعطفًا عليهم لما نالهم من اضطهاد وحرمان على يد بنى أمية. وإذا كانت القصيدة ترقى وتسمو بشرف موضوعها، فحسب هذه القصيدة أنها ترسم صورة واضحة المعالم بارزة القسمات لأشرف بيت من البيوت، وأحب شخصية من الشخصيات فى نفس كل مسلم محب لآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم.

ولقد أجاد الشاعر المحب لزين العابدين ولآل البيت أجمعين، حيث استهل قصيدته باسم الإشارة الموضوع فى اللغة للقريب، وحين كرره فى القصيدة أكثر من مرة، تنبيهًا على تعظيم المشار إليه، وإيماء إلى جلال قدره، وتلميحًا لحبه، وتلويحًا بالإعجاب به، لأن القريب -دائمًا- محبوب، والمحبوب دائمًا يخالط النفوس، ويملأ كيانها.

ولقد ذكر الشاعر المسند إليه أولاً -كما يقول البلاغيون- مع وجود قرينة السؤال عنه بالإشارة (هذا)، ثم ذكره مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، وهلم جرا، لا لغرض سوى التعريض بذلك الذى تجاهل الإمام زين العابدين وأنكره، فكأنه -فى نظر شاعرنا- قد بلغ من شدة الغباء مبلغا لا يستطيع معه أن يعرف المتحدث عنه إلا بذكره، وقد عرفته بطحاء مكة، كما عرفه البيت الحرام وما حوله، وجميع الأماكن فى الجزيرة، بل الناس جميعًا، العربى منهم والعجمى؛ لأنه ابن خير عباد الله صاحب التقوى والطهر والعلم، المستجيب لكل نداء، والمنتسب لخير أهل الأرض جميعًا... إلخ.

والقصيدة -فى رؤيتنا النقدية- من عيون الشعر العربى بصفة عامة، والشعر الأموى بصفة خاصة، وقد توفر فيها العديد من المزايا الأدبية والخصائص الفنية التى ترقى بها إلى ذروة الشعر الممتاز، وتصعد بصاحبها إلى قيمة الشعراء الفحول.

فهى من الشعر الغنائى الرائع، وتمثل -كما أشرنا- غرضًا شعريًا من الأغراض البارزة فى عصر بنى أمية، وأبياتها من الأدب المادح للإمام زين العابدين ولأل بيت رسول الله الكرام.

وقد جاءت -كما أشرنا- وليدة تجربة شعرية مر بها صاحبها، حين سمع بأذنيه، وأبصر بعينيه تجاهل وإنكار الخليفة الأموى، للإمام زين العابدين، فزعم -حين سئل عنه- أنه لا يعرفه، وهو فى الحقيقة يعرفه، فتأثر شاعرنا وانفعل بهذا الموقف، وأخذته الحمية، فقال: (أنا أعرفه)، ثم راح ينشد هذه القصيدة مرتجلا، بعاطفة صادقة قوية، سيطرت على الشاعر من أول القصيدة إلى آخرها، مدحًا وحبًا وإعجابًا بشخصية الإمام زين العابدين وآل بيت النبى صلى الله عليه وسلم.

وقد ظهر أثر هذه العاطفة الحارة فى كل لبنة من لبنات القصيدة... أعنى فى الأفكار التى احترتها، والأساليب التى تضمنتها، والتعبيرات التى صيغت منها، والموسيقى التى نسمعها فيها، وما إلى ذلك.

فالأفكار الجزئية فى القصيدة كثيرة تخدم الفكر الكلية لها، وتدور حول شخصية الممدوح، والإشادة بخصاله ومكارمه، والتقدير البالغ له.

فالشاعر يتناول -كما رأينا- اشتهار زين العابدين بين الناس أجمعين، وانتماءه لبيت النبوة العريق الطاهر، واتسامه بالتقوى والنقاء، وإغاثة المحتاجين، وجمال الخلق والخلق، ومساعدة المنكوبين، كما يتناول اتصافه بالحلم والحياء

والهيبة والإحسان، والكرم، والشجاعة، والتعظيم الأزلى، والسجايا الطيبة، والأصل الكريم، والغرة المشرقة بالنور، وغير ذلك مما سبق إيضاحه فى المعنى الإجمالى للقصيدة.

على أن هذه الأفكار قد جاءت فى القصيدة متسمة بالقوة، والوضوح، والتآلف، والارتباط الوثيق بالموضوع، والامتزاج التام بعاطفة الشاعر، فلا غرو إذا قلنا: إنها ذات أثر بالغ فى نفس القارىء أو السامع.

أما التعبيرات فهى سهلة قديمة حاول الشاعر من خلالها توضيح أفكاره، ونقل أحاسيسه المقدرة لزين العابدين وآل بيت النبى -صلى الله عليه وسلم-، وقد توفرت فيها كل مقاييس التعبيرات الجيدة عند النقاد.

فهى سهلة واضحة، تخلو تمامًا من لفظ يصعب النطق به، أو يصعب البحث عنه فى معاجم اللغة، أو مهجور الاستعمال، كما أنها تخلو من الكلمات المبتذلة التى كثر تداولها على ألسنة العوام، حتى فقدت إيحاءها وتأثيرها.

وكلمات القصيدة مع هذا مطابقة لقوانين اللغة، وقواعد النحو والصرف. وإذا كان الشاعر فى البيت الثالث قد نوّن لفظ (فاطمة) وجره بالكسرة مع أنه -نحويًا- يجر بالفتحة ولا ينون للعلمية والتأنيث؛ فإن ذلك من باب الضرورة الشعرية المحتمة للتنوين والجر من أجل استقامة الوزن الشعرى.

وكذلك الأمر بالنسبة للضمير (هم)، فإن النحو يوجب بناءه على السكون فى الأبيات: ٢، ١٥، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ولكن استقامة الوزن الشعرى تستدعى ضم الميم ومدها بإشباع الضمة.

هذا وقد جاءت كلمات القصيدة -أيضًا- متلائمة مع بعضها، ومع عاطفة الشاعر، ومع موضوع القصيدة... من أمثال: يديه غياث -سهل

الخليفة- حسن الخلق والشيم- حلو الشمائل- يغضى حياء -ريحه عبق- الله شرفه وعظمه- ذروة الدين -نبعته- مغارس- نور غرته.... وما شابه ذلك.

ولأن طبيعة المدح تقتضى فخامة فى اللفظ، وقوة فى العبارة، وانتقاء للكلمات الموحية، فإن الشاعر قد راعى ذاك كله، وحالفه التوفيق فى هذا الميدان.

نحس ذلك -مثلاً- فى انتقائه لتلك الألفاظ القوية: (البطحاء - يستوكفان -لا يعروهما -الخليقة والخلائق- حمال -أثقال -أقوام -انقشعت -مشتقة -الخيم -ينشق -إشراق -الغيوث -البأس -يستترب.... وما إلى ذلك).

وكان الشاعر موفقًا إلى حد كبير فى استخدام أدوات الشرط الملائمة، فنراه فى البيت العاشر -مثلاً- يستخدم (إذا) التى تفيد اليقين، وفى ذلك تأكيد لما وصف به زين العابدين من أن قريشا إذا رأته قال قائلها: إلى مكارم هذا ينتهى الكرم.

ونراه فى البيت الثالث والعشرين يستخدم (إن) التى تدل على الشك ليوحى بأنه يشك فى أن يقوم أحد بعد هؤلاء الأتقياء، وإن حدث هذا سيكون آل البيت آئمة هؤلاء الأتقياء.

كذلك وفق فى استخدام (إذا) بالبيت الثالث عشر، لأن فيه تأكيدًا لما وصف به زين العابدين من استلام الحجر الأسود، ومعرفة الحجر لكفه حتى ليكاد يحبسه عنده شغفا به.

ووفق فى استخدامها -أيضًا- بالبيت الخامس والعشرين، لأن فيه تأكيدًا لما وصف به معشر زين العابدين من إغاثتهم الناس فى أوقات الأزمات.

ووفق فى استخدام (إن) حين قال عنهم فـى البيت الـذى بعـده (وإن عدموا) ليوحى بأنه يشك فى إصابتهم بالفقر. ولكنه لم يوفق حين قال بالبيت ذاته: (إن أثـروا)، لأن ذلـك يوحـى بشـكه فـى غنـاهم، وهـذا ينـاقض المعنـى السابق، ولكن استقامة الوزن الشعرى هى التى أوقعته فى هذا.

وعلـى كـل حـال؛ فإن الشـاعر قـد وفـق كذلـك فـى البيـت الثـامن باستخدام (لولا) وهى حرف امتناع، ليدل على أن قـول الممـدوح (لا) ممتنـع، ولا يوجد منه سوى فى النطق بالتشهد. كذلـك وفـق فـى اسـتخدام أسـاليب القصر المفيدة للتخصيص والتوكيد، ومنها على سبيل المثال قولـه: (بجـده أنبيـاء الله قد ختموا) وقوله: (ما قال لا قط إلا فى تشهده) وقولـه: (فمـا يكلـم إلا حين يبتسم وقوله: (إلى مكارم هذا ينتهى الكرم).

هذا وقد جاءت أغلب الأساليب فى القصيدة خبرية، وغرضهـا المـدح والإشادة وتعريف أهل الشام بأن الممدوح علم لا يصح تجاهله أو إنكاره.

ومن الأساليب الإنشائية فى القصيدة قوله -مثلاً- (أى الخلائق ليست فى رقـابهم؟) وقولـه: (مـن خـير أهـل الأرض)؟ وهمـا اسـتفهامان للإعجـاب والتعظيم.

وفى القصيدة محسنات بديعيـة طبيعيـة تخـدم الفكـرة، وتؤكـد المعـانى وترتبط بالعاطفة، ومنهـا -مثلاً-: الطبـاق الجميـل بـين (الحـل والحـرم) وبـين (العرب والعجم) وبين (الدجى والنور) وبـين (حبهـم وبغضهـم) وبـين (أثـروا وعدموا).

ومنها الجناس الناقص بين (التقى والنقـى)، وبـين (حلـو وتحلـو) وبـين (مكارم والكرم) وبين (الخيم والشيم) وبين (أزمت وأزمت).

ولما كان الخيال وليد العاطفة، ومرتبطًا بأحاسيس الشـاعر، فإن صوره

الجزئية فى النص قد جاءت مؤكدة معنى الإعجاب والمدح والإشادة بالممدوح، ومن هذه الصور مثلاً:

التشبيه الرائع فى البيت العشرين، حيث شبه انشقاق ثوب الدجى عن نور غرة الممدوح، بانكشاف الظلمات عن إشراقة الشمس.

وفى هذا البيت استعارة مكنية جميلة فى (ثوب الدجى)، فقد شبه الظلمة بإنسان يرتدى ثوبًا، ثم حذف المشبه به وأتى بشىء من لوازمه وهو الثوب، فأبرز المعنى المقصود فى صورة محسوسة مشخصة تحقق التأثير والإمتاع وتوحى بإشراق طلعة الممدوح ووسامته.

وفى البيت الخامس والعشرين يشبه آل البيت الطاهر فى البسالة والشجاعة بأسد الشرى.

وفى البيت الأول أربع استعارات مكنية متوالية تفيد التشخيص، حيث شبه بطحاء مكة والكعبة والحل والحرم بإنسان يدرك ويعرف، ثم حذف المشبه به وأتى بلازمه وهو المعرفة. والبيت كله كناية عن اشتهار الممدوح وذيوع صيته.

أما الموسيقى فى القصيدة، فقد تحققت بكل أنواعها، فالخارجية تمثلت فى الوزن الواحد، حيث جاءت الأبيات كلها من بحر البسيط، كما تمثلت فى القافية الواحدة، وسر جمالها: النغم الموسيقى الجميل الذى يطرب الأذن ويسعد النفس، وقد اختار الشاعر حرف الميم المضمومة رويا لقصيدته؛ لأن هذا الحرف يتفق مع عاطفته، وموضوع قصيدته.

وتمثلت الموسيقا الداخلية الظاهرة فى تلك المحسنات البديعية التى جاءت بعيدة عن التكلف، وموضحة للمعانى، وملاءمة للفكرة والعاطفة.

وتمثلت الموسيقا الداخلية الخفية في اختيار الألفاظ الفخمة، والكلمات الموحية، وصدق العاطفة، وجمال التصوير، وروعة الخيال، ونبل الأفكار، ووضوح المعاني.

ولا نغلو إذا قلنا: إن الوحدة الفنية قد اكتملت في هذه القصيدة بكل مقوماتها المعروفة؛ فالقصيدة كلها تدور حول موضوع واحد يتناول الإمام زين العابدين ومعشره، في المكارم والمحامد والمناقب.

والأبيات كلها تربطها وحدة شعورية هي المدح والإشادة بذلك الممدوح العظيم.

والشاعر في القصيدة يعرض أفكاره بتسلسل رائع، وينتقل من فكرة إلى فكرة دون أن نحس بفجوة بينها إلى أن ينتهي من قصيدته في أبياتها السبعة والعشرين.

وفضلاً عما تقدم فإن القصيدة تبرز لنا جوانب متعددة من شخصية ناظمها، فهو شاعر مؤمن قوي الإيمان، مرهف الحس، سريع التأثر بما حوله، محب لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، معجب بهم، متحمس لهم، مدافع عنهم، لديه القدرة على ارتجال الشعر، وإحكامه برغم هذا الارتجال.

ويمكن إيجاز الخصائص الفنية لأسلوبه كما تمثله هذه القصيدة في وحدة الغرض، وقوة الألفاظ وجزالتها، والاعتماد على الخيال الجزئي، والعناية بالموسيقى، وظهور أثر الثقافة الإسلامية، والتمكن من القول وبلاغة الشعر، وما أشبه ذلك والله الموفق.

## ومن روائع الأدب

# قصيدة الفرزدق فى هجاء إبليس

### - دراسة تحليلية -

يذكر الذين ترجموا للفرزدق أنه عاش ما يقارب القرن من الزمان، وأن أخلاقه تتصل بالأخلاق الجاهلية على الرغم من ولادته ونشأته في ظلال الدولة الأموية -وهى من الدول الإسلامية- فقد عاش عمره الطويل الممتد يمارس الفسق، ويشرب الخمر التى حرمها الإسلام، ويرتكب الفاحشة، ويحضر مجالس المغنيات، ويقذف بشعره المحصنات، ويتعدى حدود الله، واشتهر بين الناس بفسقه، وبحدة لسانه، وحبه للخصومات، وهجائه لمن حوله هجاءً عنيفًا مقذعًا، فعاش الناس يخشون معرة لسانه، ويهابون سلاطته، ويحذرون من فحش كلامه، وكثرة استهتاره بأعراض العباد، وأحكام الدين[1].

ويستدل الذين يصفونه هذا الوصف بشواهد عديدة من حياته وأخباره وأشعاره، ويذكرون -في هذا الصدد- نقائضه المقذعة فى الهجاء مع جرير بن عطية الخطفى، وأشعاره الدالة على إنفاقه أيامه ولياليه فى اللهو والاختلاف إلى دور القيان، كقوله -مثلاً- :

**إذا شئت غنانى من العاج قاصف        علـى معصـمٍ ريّان لم يتـخـدَّدِ**[2]

وقوله :

**همـا دلّتانـى من ثمانين قـامةً        كما انقض بازٍ أقتُمُ الريش كاسرُه**[3]

---

[1] انظر : الفرزدق للدكتور شاكر الفحام، ص ١٦٦ وما بعدها. ط. دار الفكر.

[2] ديوان الفرزدق، ص ١٣٩، ط : دار الكتب العلمية بيروت.

[3] المصدر نفسه، ص ١٨٩.

ويقولون : إنه كان بدويًا من تميم ذا غلظة وعصبية كما كان الحال بالنسبة لأجداده في الجاهلية، وأنه عاش يتمسك بعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم الجاهلية، فقد ظل -مثلاً- يجير على قبر أبيه "غالب"، على نحو ما كان أجداده يجيرون. ولما توفي صديقه "بشر بن مروان" نحر ناقته على قبره كما كان يصنع الناس قبل الإسلام، ولذلك طالما أتاه جرير -في معاركه الأدبية معه- من هذه الثغرات الثابتة له في خلقه وسلوكه ودينه[1].

ومع تسليمي بصحة ما تقدم، وباعتراف الفرزدق نفسه ببعضها في شعره، فإن الإنصاف يحملني على الإشارة إلى أنه لم يكن في كل أشعاره بعيدًا عن الالتزام بالمنهج الإسلامي في الشعر، وبالرسالة السامية للأدب فيما ينظم من درر القول وروائع الكلام، ولا كان -أيضًا- في كل فصول حياته لاهيًا ماجنًا. وبين يديّ الآن بعض الشواهد الدالة على ذلك. إذ يروى -مثلاً- أنه التقى بالحسن البصري -فقيه البصرة وقاضيها وشيخ زهادها- في جنازة، فقال للحسن : أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ قال : ما يقولون ؟ قال : يقولون: اجتمع في هذه الجنازة خير الناس، وشر الناس ! قال الحسن : كلا، لستُ بخيرهم، ولستَ بشرهم، ولكن ما أعددتَ لهذا اليوم؟ فقال الفرزدق : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة، وخمس نجائب لا يدركن. يعني : الصلوات الخمس[2].

وفي هذا الخبر دلالة على أن عقيدته ظلت مبنية على التوحيد، وعلى أنه لم يكن منسلخًا من الدين جملة، ولا مهملاً له دائمًا.

ويروى -أيضًا- أنه قيد نفسه ذات مرة، وأقسم أن لا ينزع القيد من

---

[1] انظر : الفرزدق للدكتور ممدوح حقي. ص ٢٠، ط دار المعارف بمصر (الثالثة).

[2] انظر : السابق، ص ٢٥، ٢٦.

رجليه حتى يحفظ القرآن الكريم تحقيقًا لنصيحة الإمام على بن أبى طالب حين أشار على أبى الفرزدق أن يعلمه القرآن يوم قدّمه إليه بعد موقعة الجمل سنة ٣٦ هـ، وقال له : إن ابنى هذا شاعر[١].

ولقد آتى حفظ الفرزدق للقرآن الكريم ثماره فى سلوكه على الرغم من مجونه، إذ كانت عاطفته الدينية تستيقظ فى بعض الأحايين، فيعزم على التوبة النصوح، والحياة الملتزمة بتعاليم الدين الحنيف، كما آتى ثماره فى شعره، فرأيناه يكثر من الإشارة إلى قصص الأنبياء فى جملة من شعره، ورأيناه ينظم عددًا من القصائد المطبوعة بروح الإسلام، حيث يكثر فيها من ذكر الصلاة والتقوى والبعث والحساب. ورأيناه يمدح بعناصر إسلامية كثيرة، بل رأينا هذه العناصر -أيضًا- فى أهاجيه ومراثيه ونحوهما من فنون شعره.

يقول -مثلاً- فى مدح زوجته النوار بعد أن ندم على طلاقها :

**ندمت ندامة الكُسَعِىِّ لمّا غدَتْ منى مطلقةً نوار**

**وكانت جنة فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار[٢]**

فترى الأثر القرآنى واضحًا تمام الوضوح فى البيت الثانى؛ حيث شبه حياته القديمة مع زوجته بالجنة دار النعيم والسلام والمتعة والرخاء، لكنه أخرج نفسه من هذه الجنة بطلاقها، فكان حاله حال أبى البشر الذى أخرجه عصيانه ومخالفته وانسياقه وراء وساوس الشيطان من دار الخلد والنعيم.

ويقول فى مدح بشر بن مروان الذى ولى العراق لأخيه عبد الملك :

**يا بشر إنك سيف الله صيل به على العدو، وغيث ينبت الشجرا[٣]**

---

[١] انظر : الفرزدق لشاكر الفحام، ص ١٢٢، ١٢٣.

[٢] الديوان، ص ٢٥٧، ٢٥٨.

[٣] المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

فتراه -هنا- يصف ممدوحه بأنه سيف الله الباتر لرقاب الأعداء، والغيث المنبت للشجر. والصورة الأولى سبق لكعب بن زهير أن مدح بها النبي في بيته المشهور من قصيدته (بانت سعاد) :

**إن الرسول لنور يستطاء به … مهند من سيوف الله مسلول**

ويقول مفتخرًا في إحدى قصائده :

**إن الذي سمك السماء بنى لنا … بيتًا دعائمه أعز وأطول**[1]

فترى معجمه اللغوي في هذا البيت يستمد بعض عباراته من قول الله تعالى : ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾[2] .

ويروى أنه نسك مرة، فأنشد شعرا يذكر فيه خوفه من يوم القيامة، ومن النار، ومن ذلك قوله :

**أخاف وراء القبر إن لم يعافني … أشد من القبر التهابا وأضيقا**

**إذا قادني يوم القيامة قائد … عنيف، وسواق يسوق الفرزدقا**[3]

كذلك يروى أنه حج في أخريات حياته، وتعلق بأستار الكعبة، وعاهد الله أن يترك ما هو عليه من لهو ومجون، ولا يشتم أحدًا من الناس، ولا يكذب في حديث[4] .

كل هذه النصوص والأخبار وما ماثلها شواهد قاطعة بأن الفرزدق لم يكن -كما قلت آنفًا- منسلخًا من الدين جملة، ولا مهملاً له دائمًا؛ بل كانت عاطفته الدينية تستيقظ، فتكون لها أصداؤها القوية في سلوكه الذاتي وإبداعه الأدبي معًا.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٤٨٩.

(٢) سورة النازعات : الآيتان ٢٧، ٢٨.

(٣) الديوان، ص ٣٩٩.

(٤) انظر : الفرزدق للفحام، ص ١٩١.

لكن أقوى الشواهد -في تقديري- رائعتان مثبتتان في ديوانه الضخم.. أولاهما : في مدح زين العابدين على بن الحسين -رضى الله عنه- وهي القصيدة ذات البيت المشهور :

**هذا الذى تعرف البطحاء وطأته — والبيت يعرفه والحل والحرم**[1]

والثانية : في هجاء إبليس، وهى القصيدة التى أنشدها حين دخل المربد بالبصرة ذات يوم، فلقى رجلاً من موالى باهلة يقال له : "حمام"، ومعه نحى من السمن يبيعه، فسامه الفرزدق به، فقال له حمام هذا : أدفعه إليك، وتهب لى أعراض قومى، ففعل، وشرع ينشد هذه القصيدة، ويهجو فيها إبليس أبا الغواية والشرور، ويلوم نفسه لومًا عنيفًا؛ لأنه قد أطاعه سبعين عامًا.

ففى هاتين القصيدتين -بالذات- تتجلى عاطفته الدينية الجياشة، وقلبه المفعم بالعداء للشيطان، وبالحب لآل البيت، كما يتجلى تأثره البالغ بالقيم الإسلامية الرفيعة، فضلاً عن كونهما من روائع الأدب الإسلامى فى نتاجه الشعرى الكبير، وكونها من الشعر غير المعهود والمألوف منه.

والقارئ لقصيدته فى مدح على زين العابدين يحس بحبه لآل البيت -رضوان الله عليهم- ويوقن بأن ما ركب فى طبع الفرزدق من أصداء جاهلية قد تحولت جميعها إلى عناصر خيرة تتصدى لمن ينكر آل البيت فى جرأة ليس لها نظير.

أما قصيدته فى هجاء إبليس ففيها إقرار بالخطيئة، وتوبة إلى الله، وخطاب للشيطان لم يسبق إليه غيره من الشعراء.

وأحب قبل البدء فى تحليل هذه القصيدة، ووزنها بميزان النقد الدينى والفنى أن أسوق بعض الأسباب التى تغرى المرء بدراستها والحديث عنها .

---

[1] الديوان، ص ٥١١.

فمن ذلك : أنها -كما أشرت سلفًا- إحدى نموذجين رفيعى المحتوى والمستوى من نماذج الأدب الإسلامى فى ديوان هذا الشاعر خاصة، وَفى تراثنا الأدبى الإسلامى عامة. وفيها دلالة واضحة على أن الأدب الإسلامى الذى ندعو إليه اليوم، ونجتهد فى تأصيل نظريته وشواهده ليحل محل الحداثة المنحرفة الشاذة إنما هو أدب أصيل تضرب جذوره فى أعماق التاريخ، و لم تخل منه الساحة الأدبية على امتداد العصور، و لم يتخل عنه الشعراء حتى أولئك الذين اشتهروا بالفسق، وامتلأت نفوسهم من كل نواحى الحياة اللاهية الماجنة العابثة، وظلت أخلاقهم -على الرغم من إسلامهم- متأثرة بأخلاق الجاهلية، وبكل ما ينطوى فى هذه الأخلاق من إثم. فهذا هو الفرزدق -شاعر العصر الأموى العملاق- ينسلخ من فسقه كله، ويستجيب لدعوة الإسلام -قرآنًا وسنة- بمعاداة الشيطان والحذر منه، فلا يكتفى -فى المعاداة والحذر- بالتخلى الفعلى عن وساوسه وإغراءاته؛ بل يقرن ذلك بالقول المتمثل فى هذا الهجاء الحاد الموجه لإبليس.

ونحن لن نقف من هذه القصيدة موقفًا رافضًا لقراءتها أو دراستها، بل نتلقاها بالقبول والإعجاب والرضا، حتى لا يكون شأننا بالنسبة لها شأن الحسن البصرى -رضى الله عنه- الذى يروى أن الفرزدق قد ذهب إليه إثر نظمها، وقال له : إنى قد هجوت إبليس. فقال الحسن : لا حاجة لنا بما تقول!!

قال الفرزدق : لتسمعنها أو لأخرجن فأقول : إن الحسن البصرى العابد الزاهد ينهى عن هجاء إبليس.

قال الحسن : أسكت فإنك عن لسانه تنطق[1].

---

[1] انظر : الفرزدق لممدوح حقى، ص ٢٥، ٢٦.

ومما يغرى بدراسة هـذه القصيـدة -أيضًـا- أن التـأثر بـالقرآن الكريـم -ولا سيما قصصه- واضح فيها تمام الوضوح .. الأمر الذى لفت أنظـار نـاقد كبير -كالدكتور شوقى ضيف- فأثنى عليها، وأشار إلى مـدى التأثـير القرآنـى فيها، وعدها من الشـواهد القويـة على تـأثر الشـعراء -فـى العصـر الأمـوى- بالإسلام ومثاليته الروحية فيما يعالجون من موضوعات[1].

كذلـك يغـرى بدراسـتها : أنهـا هـى وأمثالهـا مـن كـل أدب رفيـع المضمون، نبيل الغاية، رائع الأسلوب أحسن من ذلك الشعر الرخيـص العـازف على أوتار الرذيلة والشر والباطل كالغزل الإباحى المكشوف، ووصـف الخمـر، والمدح المبالغ فيه، والهجاء النابش فى الأعراض .. وما شابه ذلك.

على أنها نفحة من النفحات الإيمانية المنتصرة على دواعـى الانحـراف، ولا تستحسن لباعث دينى فحسب، وإنما تستحسن -كذلـك- لبـاعث أدبـى، فهى نفثة من نفثات شاعر هجاء، دنا وتدلى فـى بقيـة مالـه مـن هجـاء، حتـى سقط فى هاوية البذاءة، وأدرك الحضيض من الوقاحة، ناحتا مـن الصخـر كـل تمثال مشين فى دنيا الهجاء، فتراه -ولاسيما فـى نقائضـه مـع جريـر- يسـتعمل ألفاظًا فـى غايـة القـذارة، ويتطـاول إلى أعـراض المهجـو، فيسـب الأم والأب، والأخت والزوجة، والقبيلة والعشـيرة سبًا قبيحًـا مقذعًـا، ويمـزج هـذا السب بالفخر الكاذب، فيتعالى بنفسه وشعره وفنه وأهله إلى السماء، ويضع نفسه فـى منزلـة يتضـاءل دونهـا المهجـو، ويعـدّد أيـام قبيلتـه وانتصاراتهـا وزعماءهـا وشـعراءها، ويقـرن ذلـك بمخـازى المهجـو، وانكسـارات عشـيرته، ويحشـوه بالشتائم حشوًا؛ بل يقذفها فى وجهه قذفًـا قاسيًا يؤلمـه أشـد ألم حتـى يبكيـه، ولذلك كان الناس فى زمنه يخشون قلة أدبه، وسـلاطة لسـانه، ومعـرة مقولـه،

---

[1] انظر : التطور والتجديد فى الشعر الأموى، ص ٦٢، ط : دار المعارف بمصر (السابعة).

فيتحاشونه. ولم يثبت له في ميدان المعارك الهجائية سوى جرير، على ما فيه من عفة وأدب وغرف من بحر بالقياس إليه.

ولم يعف في هجائه عن تناول النساء بالمسبة والإقذاع، حتى إن امرأة قد عاذت بقبر أبيه، لكي لا يذكرها في شعره بسوء؛ بل إن (النوار) وهي ابنة عمه وزوجه لم تسلم هي الأخرى من هجائه الفاحش ولسانه المقذع. ولقد قال عن نفسه : «إنه قذف مائة محصنة من النساء غير من قذف من الرجال».

فإذا رجع هذا الشاعر الهجاء المقذع الفاحش إلى نفسه، وإلى إحدى ثورات ضميره، وتذكر أن إبليس اللعين قد أسقطه في كل ما سبق ذكره، فهو -بدون شك- رجوع صادق يعبر عن تجربة حية جديرة بالإعجاب والاستحسان والدراسة؛ بل حرية أن تتقدم في الدراسة على النقائض التي كتبت من حولها عشرات الدراسات. وإني لأعجب كل العجب من الدكتور محمد محمد حسين حين أراه يؤلف كتابًا في جزءين عن (الهجاء والهجائين) في صدر الإسلام والعصر الأموي، دون أن يشير -من قريب أو بعيد- إلى هذه القصيدة ذات المضمون الإسلامي الراقي. وعلى نهجه سار كثيرون ممن كتبوا عن هذا الموضوع. وقد فات عليهم جميعًا : أن هذه القصيدة أولى بالدراسة وأجدى من سائر الهجائيات التي درسوها، والتي تمتلئ بالمخزيات الفاضحة، والعورات القبيحة، والسوءات المندية. بل فات عليهم أن ما درسوه، وبذلوا فيه الوقت والجهد إنما هو أدب زائف، وشعر هابط لا يثبت في الميدان إذا وزن بالمعيار الديني والأخلاقي في النقد، لأنه -مهما قالوا عن قيمته الفنية- أدب ينبش فيما حرص الإسلام على دفنه، من إثارة الخصومات، وإحياء العصبيات، وبعث العداوات، ورمي المحصنات الغافلات المؤمنات، وما شابه ذلك من الإفك والإثم والبهتان. وفيه خروج سافر على الروح السمحة، والمبادئ

الأصيلة، والقيم الرفيعة لديننا الإسلامى الحنيف، فإنه دين يدعو إلى الكلمة الطيبة، وينهى عما نراه فى شعر الهجاء -ولاسيما النقائض- من تفاخر بالأحساب والأنساب، ولا يميز بين جنس وآخر، فكل الناس لآدم، وآدم من تراب. وينهى -كذلك- عما نراه فى هذا الشعر من ألفاظ السباب الساقطة، وأمور الجنس الهابطة، ووقائع الفحش الممتهنة.

وعلى كل حال، فإن هذه القصيدة هى أصدق وأنبل ما قاله الفرزدق من هجاء فى ديوانه، وقد جاءت بمثابة تكفير عما بدر منه خلال المرحلة الطويلة التى عاشها يتمرغ فى وحل النقائض، وينشد النقيضة تلو النقيضة ليزكم الأنوف بروائحها القذرة، ويسود الوجوه بصورها الحاملة للعذرة. والناس من حوله فى سوق المربد بالبصرة لاهون بالتصفيق والصفير، يشاهدون معاركه مع جرير .. وما يزالون كذلك حتى يبلغوا مشتهاهم من اللهو واللغو والفرجة والتسلية وقطع الفراغ.

القصيدة تتكون من ستة وثلاثين بيتًا، ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام متآلفة :

القسم الأول : مقدمة قصيرة من ثلاثة أبيات يلتزم بها الفرزدق عمود الشعر العربى الموروث عن شعراء الجاهلية ... فينهج نهجهم فى بكاء الأطلال والدمن والآثار وذكر الأماكن البدوية وما يشيع فيها من معالم تفنى فتثير الذكريات، وتحرك مشاعر التحسر والتلهف والتوجع والتفجع.

يقول :

**إذا شئت هاجتنى ديار محيلة ... وبربط أفلاء أمام خيام**

**بحيث تلاقى الدو والحمض هاجتا ... لعينى أغرابا ذوات سجام**

**فلم يبق منها غير أثلم خاشع وغير ثلاث للرماد رئام**[1]

وتعد هذه المقدمة -في تصوري- من براعة الاستهلال، لأن الجو المخيم عليها هو نفس الجو المخيم على القصيدة كلها، فإن الشاعر يسيطر عليه غرض خاص هو الندم على ما اقترف من آثام أوقعه فيها الشيطان بإغراءاته ووساوسه، والحزن البالغ على ما كان منه في ماضيه من أوزار وتطاول على الناس .. وكل هذا يناسبه الحديث عن الديار التي غيرتها السنون، ولم يبق منها إلا الجدران المتداعية، والأثافي المحتضنة للرماد، ونبات الحمض المالح في الصحراء .. وهكذا حال الشاعر : تهدمت أركان حياته بأوزاره، ولم يجن من أهاجيه التي ظل ينشدها نصف قرن سوى الرماد.

أما القسم الثاني، فيمثله قوله بعد ذلك :

**أما ترني عاهدت ربي، وإنني لبين رتاجٍ قائم ومقامِ**

**على قسَمٍ لا أشتم الدهر مسلما ولا خارجًا من فِيَّ سوء كلام؟**

**ألم ترني والشعر .. أصبح بيننا دُروء من الإسلام ذاتُ حُوام؟**

**بهن شفى الرحمن صدري، وقد جلا عشا بصري منهن ضوء ظلام**

**فأصبحت أسعى في فكاك قلادةٍ رهينةِ أوزار عليَّ عظامِ**

**أحاذر أن أُدْعى وحوضي مُحلِّق إذا كان يومُ الورود يومَ خصام**

**ولم أنته حتى أحاطت خطيئتي ورائي، ودقّت للدهور عظامي**

**ألا بشِّرًا من كان لا يمسك إسته ومَنْ قومُه بالليل غير نيام**

---

[1] الديوان، ص ٥٣٩، وهاجت : ثارت. ديار محيلة : مرت عليها سنوات. مربط أفلاء : موضع المهر الصغير أمام الخيمة. الدو : الصحراء. الحمض : المر أو المالح. أغراب : الدموع. سنجم : سال. الأثلم: تكسر حده. ثلاث : موقد النار في قواعده الثلاث. الرئام : العطف.

يخـافون منـى أن يصُـكَّ أنوفهـم ... وأقفـاءهم إحـدى بنـاتِ صمـام

لعَمْرى لنعْم النِّحْـىُ كـان لقومـه ... عَشِـيَّة غَـبَّ البيـعُ نِحْـىُ حِمـام

بتوبـةِ عبدٍ قـد أنـابَ فـؤادُه ... وما كان يُعطـى الناس غيرَ ظلام[1]

وواضح أن هذا القسم يدور حول توبة الفرزدق، وإنابته إلى ربه آخر حياته، وندمه على ما اقترف من آثام، وخوفه من العقاب الإلهى الذى ينتظره يوم الحساب، وتبشيره لضحاياه الذين أفزعهم وأرَقهم بأهاجيه المصمية المقذعة بإقلاعه عن ممارسة الهجاء. وحديثه عن السبب المباشر لهذه التوبة حين عرض عليه ذلك الرجل الباهلى المسمى بـ (حمام) شراء أعراض قومه بنحى مملوء بالسمن.

وقد أكد البيتان الأولان من هذا القسم ما يروى من أن الفرزدق قد حج فى أخريات حياته، وعاهد ربه -وهو واقف بين باب الكعبة ومقام إبراهيم عليه السلام- أن يترك ما هو عليه من لهو ومجون، ولا يشتم أحدًا من الناس، ولا يكذب فى حديث، ولا ينطق بكلمة سوء.

ولا ريب فى أن اعتراف الفرزدق بمعاهدته لربه على التخلى عن الهجاء والنقائض ذو دلالة على أنه لم يكن راضيًا عن هذا الضرب المشين من الشعر، وذو دلالة على أنه قد وزنه بميزان الإسلام الداعى إلى الكلمة الطيبة، فرآه وحْلاً ينبغى أن ينقذ نفسه منه؛ بل داء وظلامًا لا يقيه منهما إلا الالتزام بقيم الإسلام الحافظة للمرء من الانزلاق إلى الهاوية.

---

(1) الديوان، ص ٥٣٩، ٥٤٠، والرتاج : المغلق. من فى : من فمى. دروء : اندفاعاته القوية سواء أكان سيلاً أو ضوءًا. حوام : الشمول. العشا : ضعف البصر. حوضى محلق : زاد ماؤه وارتفع. يوم الورد: يوم الجزاء. دقت عظامى : أصبحت هشة. النحى: إناء السمن. حمام : اسم البائع. غب البيع : إنجازه.

ويقينى أن الذين يجحدون النقائض -من أنصار الفن للفن- لو كانوا قد قرأوا هذه الأبيات لاكتشفوا أن صاحبها يخالفهم الرأى فيما زعموه، إذ رأى بعد توبته -كما تشير الأبيات السالفة- أنها داء شفاه الله منه، وغشاوة على عينيه أزالها نور الإسلام، وقلادة زائفة كانت تلتف بعنقه، وتوقعه فى الأوزار العظيمة، مما جعله يسعى باذلاً كل جهد للتخلص منها، ومما جعله يقضى أيامه الأخيرة من عمره وهو يرتجف من وقوفه أمام ربه ليقتص لضحاياه منه، ومما جعله يأسى ويتحسر على ماضيه الذى عاش كل ساعاته فى مجون وهجاء وسب، و لم ينته من ذلك إلا بعد أن كبرت سنه، ودقت عظامه. ومما جعله يعلن للدنيا كلها تخليه عن هذا الضرب القبيح من الشعر .. إنها حقًا توبة شاعر، ورأى منه صريح فيما أنشد من نقائض وهجاء .. واعتزال حرفة أدبية نتنة بغيضة وصفها صاحبها نفسه بأنها تزكم الأنوف بروائحها القذرة، وتوجع الأقفاء بضرباتها المبرحة.

إن الفرزدق لم يزن نقائضه بميزان الفن، كما وزنها النقاد الذين جاءوا من بعده، و لم يلتفت إلى ما التفتوا إليها مما تحتويه من سجل تاريخى للقبائل العربية وأيامها فى الجاهلية والإسلام، وسجل تاريخى للكثير من الوقائع والعادات فى العصر الأموى، ومما تحتويه من ثروة لغوية، وألفاظ فصيحة، وتركيبات جزلة، وقوافى رضية .. وغير ذلك مما يعدونه من محاسنها.

إنما وزنها بميزان الدين والأخلاق، والتفت إلى العيوب التى تغلفها، وإلى ما فيها من انحدار وابتذال وشتائم وعصبية فاعتزلها، وتاب منها، وانطلق -فى القسم الثالث والأخير من القصيدة- يصب جام غضبه على إبليس الذى أغراه، وظل يزين له الفسق والمجون والهجاء مدة طويلة من الزمن، حددها الشاعر بسبعين عامًا، وذكر أنه حين بلغ هذا العمر، ورأى الشيب يدب فى

رأسه، وأحس بقرب الأجل فر من الشيطان إلى طاعة ربه مقسمًا أن يروض نفسه الأمارة بالسوء على الطاعة والاستقامة، والاجتهاد في العبادة حتى لو كان مريضًا عاجزًا. استمع إليه إذ يقول :

**أطعتك يا إبليس سبعين حجة ... فلما انتهى شيبى وتم تمامى**

**فررت إلى ربى، وأيقنت أننى ... ملاق لأيام المنون جمامى**

**ولما دنا رأس التى كنت خائفا ... وكنت أرى فيها لقاء لزامى**

**حلفت على نفسى : لأجتهدنّها ... على حالها من صحة وسقام**[1]

ويصور الشاعر طريقة إبليس في إغوائه، ومحاصرته له من كل مكان ليتمكن من السيطرة التامة عليه، وكيف أنه غرر به، وظل طوال هذا الزمن يمنيه بالخلود فى الحياة، ويبشره بالنعيم الأبدى، ويوجهه إلى حيث يريد من مواطن الغواية والزلل؛ فيقول :

**ألا طالما قد بتُّ يُوضعُ ناقتى ... أبو الجن إبليسُ بغير خِطام**

**يظل يُمنّينى على الرحْل واركا ... يكون ورائى مرة وأمامى**

**يبشرنى أن لن أموت، وأنه ... سيُخلدنى فى جَنَّة وسلامِ**[2]

وينتقل الشاعر فيستعرض شواهد من التاريخ الأسود للشيطان .. وأمثلة من غواياته للأمم السالفة .. وقد جاء عرض هذه الشواهد والمثل فى صورة خطاب مباشر للشيطان، وقد حملت من معانى التوبيخ والقدح ما يحكم هذا الهجاء. فقد وصف الفرزدق إبليس بأنه دائمًا للإنسان عدو مبين .. لا يفى بعهد يقطعه معه، ولا يصدق فى يمين يقسم بها إليه، وإنه ليصده عن

---

(1)، (2) الديوان، ص ٥٤٠، وتم تمامى : الكبر. المنون والحمام: الموت. يوضع الخطام: يدفعها بالحبل الموضوع فى أنف البعير. واركا : يتكئ على وركه.

الخير، ويزين له الشر، ليحرمه مما هو فيه من النعمة ورغد العيش. ثم بعد أن يخدعه، ويوقعه فى حبال المعصية، ويرى العذاب الأليم الذى يصليه الله بالعصاة ينكص على عقبيه، ويتبرأ منهم ... حدث هذا منه مع فرعون مصر، يوم زين له الضلال، وادعاء الألوهية، وتكذيب الرسولين اللذين أرسلا إليه، ويوم زين لفرعون الخروج من مصر وما فيها من نعيم وسهول خضراء وراء موسى وبنى إسرائيل للفتك بهم، ممنيًا إياه بالنصر والغلبة، ثم لما رأى البحر بأمواجه العالية ينطبق عليه تخلى عنه، وعجز عن تقديم أية حيلة من حيله لإنقاذه من ذلك المصير :

**فقلت له: هلا أخيك أخرجَتْ يمنُيك من خُضْر البحور طَوام**

**رميْتَ به فى اليمِّ لما رأيته كفِرْقة طودَىْ يَذْبُلٍ وشَمام**

**فلما تلاقى فوقه الموج طاميا نكصَتْ، ولم تحتلْ له بمرامَ**[1]

وحدث الشىء نفسه من إبليس مع ثمود قوم صالح عليه السلام، فقد كانوا يعيشون بالحجر آمنين منعمين، وبلغوا من القوة والحضارة ما مكنهم من نحت البيوت الرخامية فى الجبال، لكن اللعين تسلط عليهم، وأغراهم بعقر الناقة المعجزة التى أيد الله بها رسولهم، فحلّ بهم عذاب الله .. وهنا تخلى الشيطان عنهم، ونكص على عقبيه، ولم يف بعهده الذى قطعه معهم :

**ألم تأت أهل الحِجْر، والحجر أهلُه بأنعَم عيْش فى بيُوتِ رُخام**

**فقلت : اعقروا هذى اللقوحَ فإنها لكم، أو تنيخوها لقوحَ غرام**

---

(1) الديوان، ص ٥٤٠، وهلا أخيك : من يتبع الشيطان. وَالمراد فى البيت : فرعون. خضر وطام : البحر الملىء بالماء والأمواج. الفرقة : ما يحجز بين الشيئين. يذبل وشمام : جبلان. نكص : غدر. تحتل : تتخذ حيلة لتحقيق غايته ومرامه.

فلمـــا أناخـــوها تبـــرَّأت منهُـــمُ ... وكنت نكوصـــا عنـــد كـل ذِمام[1]

وحدث الموقف ذاته -أيضًا- من الشيطان مع آدم وحـواء، فقـد كانـا ينعمـان فـي جنـة ربهمـا بالراحـة والهنـاءة والنعيـم؛ لكنـه ظـل يوسـوس لهمـا، ويغريهما بالأكل من الشجرة المحرمة عليهما، ويقسم أنـه لهمـا لمـن النـاصحين، حتى أكلا منها، وبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، فحرما من خير دارٍ بشَرِّ أكلةٍ، وهبطا إلى الأرض :

وآدم قـــد أخرجتـــه وهـــو ســـاكن ... وزوجتـــه مـــن خـــير دار مقـــام

وأقســمت يــا إبليــس أنـــك نـــاصح ... لـــه ولهـــا إقســـام غـــير أثـــام

فظـــلا يخيطـــان الوراق عليـــهما ... بأيديهما مـــن أكل شـــر طعام[2]

وهكذا كان حال الشيطان دائمًا مع سائر الأمم على امتـداد العصـور، وتـوالى القـرون، فكـثرت ضحايـاه منهـم، وأصبحـوا -بسـبب خضوعهـم لوساوسه- أثرًا بعد عين، وأخبارًا تروى :

فكم من قرون قد أطاعوك أصبحوا ... أحاديث كانوا فى ظلال غمام[3]

ويمضى الشاعر فى هجاء إبليس، فيخاطبه بأنه قد صار اليوم مبغضًا له، مصرًا على عدم الاستجابة لـه، عازمًـا علـى أن لا يكـون مطيـة لـه كمـا كـان بالأمس، يقوده إلى حيث شـاء مـن مواطـن الغوايـة والزلـل. بـل إن الفـرزدق يتوعده بالعقاب الأليم؛ لقاء ما ساقه إليه من آثام، وردًا على ما أوقعـه فيـه مـن زلات .. وإنه لعقاب ذو وقع شديد .. يحدث فى وجه الشيطان جروحًا عميقة

---

(1) الديوان، ص ١٤٥، الحجر : ديار ثمود. رخام : حجارة الجبال. اعقروا : اذبحوا. ذمام :عهد.

(2)، (3) الديوان، ص ١٤٥. وأقسام أثام : حلف مأثوم ويمين حانث. ويخيطـان الـوراق : يسـتران الجسد بالأوراق وهو كناية عن ستر العورة. أكل شر طعام : طعام حرام عليهما. الزمام : مقـود الدابـة. العار: العيب. الزقوم : شجرة فى جهنم طعام لأهلها : ضرام : مشتعل.

بارزة، يغدو بها ويروح في جهنم .. يوم تلتقي عليه نيرانها بكل ما لها من اشتعال شديد، وبكل ما فيها من ألوان الطعام كشجرة الزقوم :

**وما أنت يا إبليس بالمرء أبتغي … رضاه، ولا يقتادني بزمام**

**سأجزيك من سوءات ما كنت سقتني … إليه جروحًا فيك ذاتَ كِلام**

**تُعيِّرها في النار، والنارُ تلتقي … عليك بزقُّومٍ لها وضرام[1]**

وبعد أن وجه إليه هذه السهام منتقمًا منه منتصرًا عليه ختم هذه القصيدة الرائعة ببيان أن وظيفة الشيطان وذريته هي تعذيب كل الناس، فكل غلام يولد في عالم الشياطين لا يرضعه أبوه إلا بعذاب الناس، والوسوسة إليهم. وإن الفرزدق نفسه كان أحد الذين أصيبوا بذلك طوال سبعين عامًا، سيطر عليه خلالها الشيطان وذريته، فكانا يتفلان من فمويهما في فمه ما أنشده من هجاء خبيث، وشعر ماجن :

**وإن ابن إبليس وإبليس ألْبنا … لهُمْ بعذاب الناس كُلَّ غلام**

**هما تفلا في فيّ من فمويْهما … على النابح العاوي أشدَّ رِجام[2]**

هذه هي قصيدة الفرزدق في هجاء إبليس، وتلك هي المعاني التي تناولها فيها. ولا ريب أنها تعبر تعبيرًا صادقًا عن تجربة شعورية حية لشاعر قضى سبعين عامًا من عمره في لهو ومجون، وفسق، واستهتار، ثم رجع إلى نفسه في إحدى ثورات ضميره، وأدرك أن الوقت قد حان للتوبة النصوح، والانتصار على النفس، والتغلب على الهوى، وعدم الانقياد لغواية الشيطان.

والقصيدة -من ناحية الغرض الأدبي- تمتاز بالجمع بين القديم والجديد، فالهجاء -كما نعرف- غرض قديم من أغراض الشعر العربي؛ ولكن

---

[1]، [2] الديوان، ص ٥٤١، ألبنا : ستاهم. تفلافي : نفثا في فمي. فمويهما تصغير فم والنابح للكلب والعواء للذئب رجام : الرمي بالنجوم أو الشهب.

الجديد فى الهجاء -هنا- هو هجاء إبليس. وأغلب الظن أن الفرزدق هو أول من تناول هذا الموضوع بين الشعراء العرب.

وتمتاز القصيدة -أيضًا- بالوحدة الموضوعية، إذ تدور أبياتها حول توبة الشاعر، وهجاء الشيطان، والعزم على الحياة الطيبة الصالحة النائية عن الفسق والمجون وسب الناس ونهش الأعراض.

وقد جاءت هذه الوحدة الموضوعية من الوحدة النفسية الشعورية فى القصيدة، حيث ربطت الأبيات عاطفة قوية صادقة، سيطرت على الشاعر من أول القصيدة إلى آخرها، فما من بيت إلا ونحس فيه تبرم الشاعر بحياته الماجنة، وضيقه بالشيطان، وكراهيته له، وحرصه على توبيخه وتحقيره، وإبراز عداوته للإنسان .. وهذا -بدون شك- خيط شعورى واحد، يرتفع بشأن القصيدة.

ولقد كان الشاعر بارعًا حقًا فى ذلك الاتصال الفكرى الملحوظ فى تصوير تجربته، فالأفكار ذات ترتيب وترابط وتسلسل، وفيها قوة ووضوح وامتزاج بالعاطفة، ولذلك فإنها تؤثر تأثيرًا بالغًا فى نفس القارئ والسامع.

ولكل ما سبق يمكن الحكم بتحقق الوحدة الفنية فى القصيدة، حتى إنه ليصعب علينا حذف جزء منها، أو تقديم جزء على آخر.

كذلك يمكن الحكم بأن الشاعر قد وفق -من خلال وجدانه وتعبيره- فى رسم صورة كلية واضحة المعالم، متآلفة القسمات لتوبته وإقلاعه عن الطيش والنزق واللهو، وغير ذلك من غوايات إبليس ووساوسه ومكايده. والرائع حقًا : أن هذه التوبة كانت وليدة حادث صغير عارض حين اشترى منه الباهلى أعراض قومه بنحى من السمن. ولكن رب حادث صغير يكون سببًا فى أحداث جسام أو قصائد رائعة، فالفرزدق قد أدرك ساعتئذ أنه قد تجاوز الحدود فى الهجاء المقذع والتعرض لأعراض الناس، فكانت هذه التوبة

الصادقة، وكانت هذه اللوحة الفنية الرائعة البديعة التى يتخللها العديد من الصور الخيالية الجميلة كقوله -مثلاً- :

**فلم يبــق منها غير أثلم خاشع    وغير ثـــلاث للرمـــاد رئام**

ففى هذا البيت استعارتان مكنيتان .. أولاهما تبرز الجدران المتداعية من الديار فى صورة إنسان خاشع ذليل. والثانية : تبرز الأثـــافى وهى تحتضن الرماد، وتلتف حوله فى صورة الأم الرؤوم وهى تحتضن طفلها. وقوله :

**فأصبحت أسعى فى فكاك قلادة    رهـــينة أوزار علىّ عظـــام**

فيه استعارة تبرزه وهو يخلص نفسه من الأوزار فى صورة من يفك قيده من الأسر. وقوله : "حوضى محلق" كناية عن كثرة الأوزار والبعد عن الرحمة. وقوله : "يوم الورد يوم خصام" كناية عن الحساب والجزاء، وقوله : "أحاطت خطيئتى ورائى" وقوله : "دقت عظامى" استعارتان مكنيتان.

وقوله :

**ألا بشرا من كان لا يمسك استه    ومن قومـــه بالليل غيـــر نيام**

فيه كناية عن الرعب بقوله : (لا يمسك استه)، وكناية عمن يسهرون لحماية أعراضهم منه بقوله : (ومن قومه بالليل غير نيام).

وفى قوله :

**يخافون منى أن يصــك أنوفهم    وأقفاءهـــم إحـــدى بنات صمام**

كناية عن شعره وقصائده ببنات الصمام، وهى الدواهى. وفيها إيحاء بشدة التأثير، وقوله : (لنعم النحى نحى حمـــام) مجاز مرسل لأن المدح للبائع وليس لوعاء السمن. وقوله : (ما كان يعطى الناس غير ظلام) استعارة تجسم الظلام وتجعله شيئًا ماديًا يعطى باليد.

ليس هذا نحسب؛ ولكنك كلما تأملت أبيات القصيدة وجدتها زاخرة بالصور الخيالية المؤثرة الدالة على أن الشاعر من أولئك الشعراء المصورين الذين تستأثر بهم الصورة، فيؤثرونها ويكثرون منها في إبداعهم : تشبيهًا واستعارة وكناية. ولقد كان الفرزدق -حقًا- ممن يحسنون انتزاع هذه الصور، ويأتون بها حية موحية، وكان يؤثر تجسيم المعاني، وإبرازها في صورة محسوسة فكثرت الاستعارات المكنية في شعره، وكان يؤثر الكناية على التصريح فتعددت الكنايات في قصائده. وكان مرتبطًا بحياة البادية، متطلعًا إليها أبدًا فاستمد صوره وتشبيهاته من الحياة البدوية، ومن هنا كانت وثيقة الصلة بحياة الناس، مثيرة لخيالهم، مرتبطة بطبيعتهم، لها جمالها وألقها وانظر إلى قوله : (فررت إلى ربى) وكيف جعله كناية عن هروبه من الشيطان ولجوئه إلى الرحمن.

وانظر إلى قوله :

**ولما دنا رأس التى كنت خائفا وكنت أرى فيها لقاء لزامى**

وتأمل هذه الاستعارة المكنية التى تبرز المنية في صورة كائن حى له رأس، ولاحظ كيف جسمت المعنى وأوحت بقرب وقوع الموت و نغزع منه.

وانظر إلى قوله :

**يظل يمنينى على الرحل واركا يكون ورائى مرة وأمامى**

ولاحظ ما يحتويه الشطر الأول من استعارة مكنية تحقق التأثير والإمتاع بإبرازها لإبليس في صورة إنسان تشاهده العين راكبًا على رحل الناقة، معتمدًا على فخذ الشاعر. ولاحظ ما يحتويه الشطر الثانى من كناية عن ملازمة الشيطان للإنسان وتسلطه عليه من شتى الجهات وهى كناية كاشفة عن طبيعة إبليس الملحة في إصرار وعناد والمصرة على الإغواء بأساليب مختلفة.

وانظر إلى قوله :

**رميـــت به فى اليــم لما رأيته ... كفرقة طودى "يذبل" و"شمام"**

ففيه تشبيه موضح لحال المشبه، ويبرز انفلاق البحر إلى قطعتين هائلتين من الأمواج المتراكمة، وكأنهما جبلا يذبل وشمام.

بالإضافة إلى ما يفيده تشبيه الطريق العميق بين جانبى البحر بالوادى العميق بين هذين الجبلين.

إن هذه الأمثلة ذات دلالة بينة على أننا أمام شاعر ذى حسّ مصور، يريد أن يجسم الصورة لتتمثل أمام الناظرين فى رسم فنى بديع.

ولقد كان من أثر طبعه الفنى المصور أن غدا أكثر إدراكًا لسر اللفظة المصورة، ينتقيها ويأتى بها على سبيل الكناية لتغدوا فى كلامه موحية تحمل من المعنى ما لا تطيقه جملة .. فإذا صور اجتنابه المعاصى كنّى عنه بالفرار إلى ربه. وإذا صور الناقة المعجزة التى أيد الله بها رسوله صالحًا عليه السلام كنّى عنها باللقوح. وإذا صور الجنة التى أخرج منها آدم وحواء كنى عنها بخير دار مقام. وإذا صور الشجرة التى أكلا منها كنى عنها بشر الطعام. وإذا صور الشيطان كنى عنه بالنابح العاوى .. وكلها كنايات جميلة تؤدى المعنى المقصود ومعه الدليل على صحته.

هذا عن بعض ما فى القصيدة من تصوير خيالى مؤثر، ومقدرة الشاعر على انتزاع الصور الموحية المعبرة المؤثرة.

أما التعبير، فقد جاء ملائمًا لموضوع القصيدة، معتمدًا على الانتقاء فى جرس موسيقى قوى. وأغلب الألفاظ تحس فيها الحركة مثل (تلاقى - أسعى - يصك - فررت - دنا - يوضع - أخرجت - رميت - نكص - أناخوها - يخيطان - تفلا).

وربما نرى فى بعض الألفاظ اللون مثل : (ضوء ظلام - شيبى - خضر البحور - ألبنا). أما الصوت فنسمعه -مثلاً- فى (أدعى - النابح - العاوى) ولا شك أن الحركة واللون والصوت خيوط فنية للصورة الكلية التى رسمها الفرزدق فى قصيدته.

وإذا كنا نحس فى كلماته شدة الوقع فى الأذن، وقوة المخارج للحروف، فإن مجيئها على هذا النحو تدناسب الغرض الرئيسى للقصيدة وهو التوبة من قبيح الشعر والمعاصى، والبراءة التامة من إبليس. كما أنها -فى الوقت ذاته- صدى وانعكاس لطبيعة الفرزدق البدوية الخشنة، ومعجمه الشعرى القائم على النحت من الصخر الغليظ الضخم.

لقد كان الفرزدق -كما نعلم- شاعرًا يؤثر الجزالة والقوة والخشونة فى ألفاظه، ولا غرو فهو أعرابى بدوى عاش يجاهر بأعرابيته وبداوته، كما يقول :

| | |
|---|---|
| **وإنا أهل بادية ولسنا** | **بأهل دراهم حضروا القرارا**[1] |

بل كان يرى أنه وريث الشعراء الجاهليين، والحفيظ على تراثهم الفنى، خصوه بذلك، ودفعوا إليه كتابهم وصية، كما يقول :

| | |
|---|---|
| **وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا** | **وأبو يزيد وذو القروح وجرول** |
| **والفحل علقمة الذى كانت له** | **حلل الملوك، كلامه لا ينحل** |
| **وأخو بنى قيس، وهن قتلنه** | **ومهلهل الشعراء، ذاك الأول** |
| **والأعشيان كلاهما، ومرقش** | **وأخو قضاعة، قوله يتمثل** |

...إلى أن يقول :

---

[1] الديوان، ص ١٧٢.

دفعوا إلىّ كتابهن وصية فورثتهن كأنهن الجندل[1]

لذلك كانت ألفاظه وصوره وموسيقاه شديدة الصلة بالتراث الجاهلى القديم، فاستأثرت بأسلوبه : الجزالة، والقوة، والنغم الموسيقى الصاخب، وبداوة الصور الخيالية، وخشونة الألفاظ والعبارات؛ فبدا شعره صلبًا فيه غلظ وخشونة. وحسبك أن تقرأ فى القصيدة التى نحن بصدد دراستها مثل هذه الألفاظ : (الدو - الحمض - سجام - أثلم - رئام - حوام - يصك - صمام - خطام- طوام - طودا يذبل وشمام - اللقوح - تنيخوها - نكوص - زقوم - ضرام ... وما إلى ذلك).

لكن الفرزدق وإن تمسك بألفاظ الجاهليين ذات الجرس القوى فإنه قد تأثر -أيضًا- بثقافته الإسلامية، فكثرت فى شعره الألفاظ القرآنية، والإشارة إلى القصص القرآنى، وأخبار الرسل السابقين، والحديث عن الآخرة، والجنة، والنار، والجن والملائكة، وتصرف فى هذه المعانى تصرفًا يدل على مقدرته الأدبية.

ومن آثار ثقافته الإسلامية فى القصيدة التى بين أيدينا : قوله فى البيت العشرين منها : (يظل يمنينى)، فهو ناظر إلى قول الله تعالى عن إبليس : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ وقوله فى البيت نفسه : (يكون ورائى مرة وأمامى)، فهو ناظر فيه إلى قول الله تعالى -على لسان إبليس- : ﴿... ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ...﴾ الآية.

وبدءًا من البيت الثانى والعشرين حتى البيت الثلاثين : نراه يستعير من القرآن الكريم بعض قصصه العظيم، ليحكم هجاء إبليس، فيشير إلى قصة

[1] الديوان، ص ٤٩٣، ٤٩٤.

فرعون، وغرقه في البحر، وإلى قصة ثمود وعقرهم الناقة، ثم إلى قصة آدم وحواء. إلا أنه لم يرتب هذه القصص وفق ترتيبها الزمني في التاريخ.

ويتجلى في الأبيات التي تصور قصة آدم وحواء : تعبيره عن حواء بلفظ (زوجة)، فلم يجرده من التاء كما كانت تنطق قريش، وكما جاء في القرآن الكريم الذي نزل بلسانها نحو قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ. . .﴾ وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ. . .﴾ وقوله تعالى عن عبده زكريا : ﴿. . . وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ. . .﴾.

وسبب هذا أن الفرزدق ينتسب إلى دارم ثم تميم، وكانت لهجة هذه القبيلة تختلف في بعض الألفاظ عن لهجة قريش، ومن مظاهر هذا الاختلاف نطق الزوجة بالتاء للتفرقة بينها وبين المذكر، والأفصح -بالطبع- هو اللهجة القرشية.

وعلى كل حال فإن صياغة الشاعر للقصيدة صياغة محكمة متينة النسج، بحيث تشعر بالفخامة وقوة الرنين الذي يتميز به الشعر العربي الأصيل.

والأساليب الخبرية كثيرة في القصيدة لأنه يصور شعوره وانفعالاته تجاه إبليس، ويبدو في تصويره هذا نادمًا أشد الندم على ما بدر منه في ماضيه، ناقمًا أشد النقمة على الشيطان، مصرًا كل الإصرار على التوبة النصوح، مما يوحي بأنه قد راجع نفسه، واستعرض شريط حياته مع اللهو والفسق والهجاء والسباب، فتنبه إحساسه، وعاد إليه وعيه، وتنبه أن الشاعر الملتزم بمنهج الإسلام قولاً وفعلاً وعقيدة وتعاملاً لا يمكن أن يقول الفحش، ولا أن يعتدى

على الأعراض؛ لأنه يؤمن بأن الكلمة موقف، والشعر مسؤولية، فلا يطلق للسانه العنان،ولا ينقاد لنفسه الأمارة بالسوء ولا لهواجس الشيطان اللعين.

وقد جاءت بعض الأساليب إنشائية محركة للمشاعر كالاستفهام التقريرى فى قوله :

**ألم ترنى عاهدت ربى وإننى لبين رتاج قائم ومقام ؟**

وقوله : **ألم ترنى والشعر أصبح بيننا دروء من الإسلام ذات حوام؟**

فتراه يقرر هنا أنه أدرك -بعد سنوات من الهجاء الفاحش واللهو الماجن- أن الالتزام الإسلامى أصبح يمنعه من القول الفاحش، ويقف حائلاً بينه وبين الخطأ والرذيلة.

وتكرير هذا الاستفهام التقريرى ذو دلالة على اتخاذ قرار التوبة بلا تردد، والعهد مع الله بلا رجعة وهو قرار صلب حاسم مؤكد فى تصوير أدبى تمده روافد متعددة ترجع إلى وحى الرؤية الحسية فى البصر والمعنوية فى البصيرة.

ومثل الاستفهام الموبخ للشيطان فى قوله :

**ألم تأت أهل الحجر والحجر أهله بأنعم عيش فى بيوت رخام ؟**

ومثل النداء الذى تكرر ثلاث مرات فى قوله : (يا إبليس)

وهو نداء يشعر بالضيق والغيظ والتبرم من الشيطان.

ومثل القسم فى قوله :

**لعمرى لنعم النحى كان لقومه عشية غبّ البيع نحى حمام**

وهو قسم يؤكد سعادته البالغة بذلك الحادث الصغير العارض الذى كان مقدمة لتوبته، وسببًا فى مراجعة نفسه، وبداية لإقلاعه عن النهش فى الأعراض بقبيح الهجاء.

والقسم فى قوله :

**على قسم لا أشتم الدهر مسلما ... ولا خارجا من فىّ سوء كلام**

وهو يزيد المعنى السابق قوة وتأكيدًا.

والقسم فى قوله :

**حلفت على نفسى لأجتهدنها ... على حالها من صحة وسقام**

قسم يؤكد عزمه وإصراره على الاجتهاد فى العبادة وصالح الأقوال والأفعال فى كل حال.

والدعاء على إبليس فى قوله : (على النابح العاوى أشد رجام) يوحى بشدة ضيقه من الشيطان الذى أغواه وتراه دقيقًا فى اختيار ألفاظ هذه الجملة الدعائية لإبراز إبليس فى صورة قبيحة منفرة هى صورة الكلب النابح والذئب العاوى، وليس لهذين الاثنين سوى الرمى بالحجارة والرمى المفضى إلى القتل.

فكل تركيب فى القصيدة له مدلول خاص، وإيحاء معين يهدف إليه الشاعر، تعاونه فى ذلك الألفاظ التى اختارها بدقة بالغة، فجاءت موحية معبرة، قوية جزلة، فصيحة أصيلة، على النحو الذى نراه -مثلاً- فى اللفظتين "عاهدت" و"قسم" الدالتين على التصميم والعزم. وعلى النحو الذى نراه فى قوله : "أصبحت" الموحى بأن التوبة والرجوع إلى الله نور وهدى يشبه نور الصباح المبدد للظلام والخوف. وقوله : "فكاك" بصيغة المبالغة يوحى بأن أوزاره كانت كثيرة وثقيلة، ولازمته كالقلادة ولم تكن وزرًا واحدًا، وإنما هى "أوزار" كثيرة، وليست من اللمم، وإنما هى من الكبائر، كما تصور ذلك لفظة "عصام" بصيغتها ودلالتها الوضعية فى اللغة. ويؤكد عظمها ما يدل عليه قوله: "وحوضى محلق" أى كثير الذنوب.

وتصور صيغة المفاعلة في قوله : "أحاذر" عنف المقاومة في الحذر والإصرار على التوبة بعزيمة صادقة استعدادًا ليوم الحساب للفصل بين العباد، إما إلى الجنة وإما إلى النار، مما يوحي به قوله : "يوم خصام".

ويوحي قوله : "أحاطت خطيئتي ورائي" باتساع الماضي وعمقه؛ مما يدل على كثرة ذنوبه وخطاياه في الهجاء والنقائض التي كان لها أثر كبير في ضعفه وشيخوخته، حتى أتت على عمره كله، كما يدل عليه قوله : "دقت للدهور عظامي"، أي أصبح عظمه هشًا ضعيفًا دلالة على كبره وضعفه، لأنه -كما ذكر في القصيدة- لم يتب إلا بعد السبعين من عمره.

ويوحي قوله : "أطعتك يا إبليس" بالتحسر والاعتراف الأليم بالذنب، ويوحي قوله بعد ذلك : "سبعين حجة" بأنه قد بلغ الغاية وأشرف على النهاية مبالغة وإسرافًا في الهجاء المذموم، لأن السبعة هي كمال الأعداد، فكان الكمال في سبع سماوات وسبع أرضين، وسبعة أيام في الأسبوع، وسبع مراحل في خلق الإنسان، وسبع درجات في السلم الموسيقي، وسبع أعضاء في سجود الإنسان لله ... وغيرها مما جاء سبعًا في الكون فما بالك بمضاعفة السبع عشر مرات فتصير سبعين ؟ إنها قمة المبالغة والإسراف في الهجاء القبيح، وقمة الاعتراف بالخطيئة، و قمة التحسر والندم على ما فات من عمره في العبث واللهو والمجون والقذف، وقمة الإخلاص في التوبة النصوح والإصرار عليها.

ويوحي قوله : "هلا أخيك أخرجت يمينك" بالإنكار والعجز عن إنقاذ إبليس لفريسته التي يغريها ويخدعها. ثم تأمل تلك الصورة العجيبة من إبداعات الفرزدق، وهي "خضر البحور طوام" التي تحدد أعماق المياه حتى صار لونها أخضر، فإذا ازدادت عمقًا كان لونها أزرق، أما الماء القليل في البحر فلونه شفاف لا لون له، ترى سطح الأرض منه، ويؤكد هذه الدكنة في الخضرة هذه الجموع في "خضر البحور طوام".

وتأمل روعة التصوير بالرمى فى قوله : "رميت به فى اليم" لأنه يعاقبه على استجابته لخداعه وإغرائه، فيقذفه ويغرقه فى البحر ليبتلعه ويدمره ويجعله أثرًا بعد عين.

وانظر إلى روعة الإيحاء وجمال التصوير النابعين من صيغة المفاعلة فى قوله : "تلاقى" الذى يصور تلاطم أمواج البحر وعنفها أثناء الغرق، بل وعظمتها وكثرتها النابعة من التنكير والتنوين فى لفظة "طاميا".

وانظر إلى دلالة قوله : "نكوصًا و لم تحتل له بمرام" على تخاذل الشيطان وعدم نصرته لأعوانه الذين يضلهم ويبعدهم عن الصراط المستقيم. لأن "نكوصًا" تتضمن معنى الجملة التى بعدها، ولا تغنى أحدهما عن الأخرى، فالثانية نفى، والأولى تؤكد معناها بالإثبات، وعلى ذلك فهما تختلفان. وليست أحدهما حشوًا ولا زيادة بدون فائدة.

وتأمل صيغة المبالغة "اللقوح" التى عبر بها عن ناقة سيدنا صالح عليه السلام وكيف توحى هذه الصيغة بكثرة لبن تلك الناقة، على أن هذه الصيغة تدل أيضًا على عظيم الانتقام لتدرهم فى عقرها فى قوله : "لقوح غرام".

وانظر إلى الصورة الأدبية فى صيغة المبالغة "نكوصًا" وكيف توحى بالعناد والإصرار والغدر والخيانة ونقض العهد والمقت والتأخر وغيرها.

وانظر -أيضًا- إلى قوله : "تبرأت" من برىء -بزيادة التاء وتضعيف الراء- وما يوحى به من زيادة النكران والغضب عليهم لكفرهم بالنعم التى أسبغها الله تعالى عليهم، وأنهم يستحقون ما نزل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة.

إن كل ما سبق ذو دلالة بينة على أن القصيدة ذاخرة بالألفاظ المصورة الموحية المعبرة المؤثرة.. الأمر الذى يدل على أن الفرزدق الذى اشتهر بمعجمه

اللغوى الغريب والحوشى كان ذا موهبة شعرية قادرة على تحويل الصعب سهلاً، والحوشى مأنوسًا، والغريب رفيقًا رقيقًا موحيًا معبرًا مؤثرًا. وهكذا يفعل ذو المواهب الفنية .. ينحت الألفاظ من صخر .. ويسلكها فى عقد منظوم بقوة نظم، وحسن موقع، وروعة إيحاء فإذا هى قطرات من بحر تسيل رقة وعذوبة، وتفيض روعة وإبداعًا وبيانًا، ولا غرو فى ذلك فالفرزدق فحل من فحول الشعراء، ولولا شعره لذهب ثلث لغة العرب.

ومعروف أن الفرزدق كثيرًا ما كان يتيه بحسه اللغوى على نحاة البصرة وعلماء اللغة، فيأتى بغرائب الألفاظ ويصرفها فى الصياغة تصريفًا يزيل شيئًا من غموضها، ويأتى بما يخالف القياس فى التقعيد النحوى حسب تصورات النحاة، فلا يملكون تخطئته لأنه ممن يحتج بشعره، وبالتالى فإنهم يكدون ويجتهدون فى تخريج ما أتى به. ومن ذلك -مثلاً- قوله فى القصيدة التى بين أيدينا :

**ألم ترنى عاهدت ربى ، وإننى لبين رتاج قائم ومقام**

**على قسم لا أشتم الدهر مسلما ولا خارجا من فى سوء كلام**

فتراه فى البيت الأول من هذين البيتين يلجأ إلى التقديم والفصل بين الكلم فيؤخر خبر إن فاصلاً بين الرتاج والمقام، وينقل اللام المزحلقة من قائم ويدخلها على (بين) وأصل العبارة : وإننى لقائم بين رتاج ومقام؛ وهذا مثال من الأمثلة التى جعلت النحاة والبلاغيين والنقاد ينعتونه بالتعقيد ومداخلة الكلام، حين يلتوى عليه القول أحيانًا -وهو الشاعر الفذ- فيخالف نظام الجملة المتعارف عليه عند النحاة، ويفلت منه النسق المألوف فى ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى، فيقع له من التقديم والتأخير فى مواضع الكلم ما يتعب النحويين فى تخريجه أو يدفعهم إلى التسليم بأن ما أتى به شاهد يؤصلون له قاعدة، ويجعلونه شاهدًا لها.

وتراه في البيت الثاني يضع الصفة موضع المصدر، فيقول (ولا خارجًا من فيّ سوءُ كلام) والمعنى : ولا يخرج خروجًا من فمي كلام سيء. لأنه حمله على (عاهدت) في البيت الذي قبله. وبهذا استدل النحاة على جواز وضع الصفة موضع المصدر، استجابة لقول الفرزدق لهم : (على أن أقول، وعليكم أن تعربوا)[1].

ومما جاء في القصيدة من هذا الباب المتعب للنحاة في التخريج والتعليل قوله :

**هما تفلا في فيّ من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام**

حيث جمع بين العوض والمعوض عنه في (فمويهما)، وأتعب أهل الإعراب في التعليل[2].

وعلى كل حال؛ فإن القصيدة تتميز بعمق المعاني، وتدفقها، وقدرة الشاعر على الافتنان فيها والتجديد. وحسبه أنه أول شاعر هجا إبليس. ويذهب الباحث بطرس البستاني إلى أن القصيدة ذات دلالة بينة على أن الفرزدق أول شاعر إسلامي نظم في فن الزهد، فيقول : «هو أول شاعر إسلامي أخذ بأهداب هذا الفن، فنظم قصيدة يهجو بها إبليس، ويتوب إلى ربه نادمًا على ذنوبه، وهي وإن تكن لا تستوعب شروط الشعر الزهدي من ذم الدنيا وملاذها، وإيراد المواعظ والحكم والأمثال، فإنها تنضم إليه بما فيها من إقرار بالخطيئة، وتوبة إلى الله، وخطاب للشيطان لم يسبق إليه»[3].

---

[1] انظر : كتاب سيبويه، ١ / ١٧٣، وشرح الأبيات المشكلة الإعراب، ص ٢٤٣، ولسان العرب : مادة خرج.

[2] انظر : لسان العرب مادة فمم ومادة فوه وكتاب سيبويه ٢ / ٨٣، ٢٠٢.

[3] أدباء العرب، ص ٣٥٥، ط. دار مارون عبود، بيروت.

والقصيدة -كما رأيت- لون من فن الحكاية والمحاورة صبه الفرزدق في قالب موسيقى طويل ممتد (فعولن مفاعيلن / مكررة ٤ مرات) يتسع لكل ما أراد أن يقول عن توبته وعن ذم إبليس، ويتناسب طوله مع استيعاب الصور الكثيرة المركبة، لتصوير حملته العنيفة على الشيطان، وما يتلاءم مع طوله من عنف مشاعر الكره الشديد، وتدفق البغض العنيف للأبالسة لمقاومة إصرارهم وعنادهم على إغراء الإنسان حتى يصير من أتباعهم.

وقد جاءت القافية في كل بيت نابعة من معناه غير متكلفة، واستطاع الشاعر عن طريقها أن يضيف لبنة إلى اللبنات التي صورت بغضه الشديد لإبليس، لأنه اعتمد في القافية -كما ترى- على حرف لين وهو الألف، مما يطول معه الإيقاع والتنغيم الذى انتهى بالروى المكسور، وهو حرف الميم، وهو يمتاز بالتنغيم في إيقاعه الصوتي، ويزيد من عمق إيقاعه وطوله حركة الكسر التي تزيد امتداده في الإيقاع والتنغيم.

والشاعر -وإن لم يلتزم بالتصريع في أول القصيدة- فإنه أتى بألوان عدة من ألوان الموسيقا الداخلية الخفية التي ازدادت بها القصيدة إيقاعًا، وتلاءمت مع التجربة الشعرية فيها، ومع المعاني والأفكار والعاطفة، فلا عبارة أو صورة أو بيت خلت من تتابع حروف اللين والشدات والتنوين، واختيار الحروف الثقيلة في النطق وفي إيقاعها الصوتي، كالهاء والحاء والطاء والخاء والجيم والميم والفاء والثاء والعين والقاف والتاء والشين، ونحو ذلك مما يشكل تصويرًا صوتيًا ثقيلاً وعنيفًا، يمتد فيه الإيقاع ويطول، ليتلاءم مع العاطفة القوية، والمشاعر المتدفقة، والأفكار الكثيرة من ثقل وقع أصوات الحروف وامتداد الإيقاع والنغم الممتد مع اختيار الكلمات والصور الأدبية الموحية بالعنف والقسوة وغزارة المعاني وتنوع الإيحاء.

ومما زاد الإيقاع عمقًا وطولاً وامتدادًا وتوازنًا : تآزر بعض المحسنات البديعية التى جاءت عفو الخاطر مثل الجناس فى قوله : "تم تمامى" وهو جناس اشتاق يوضح المعنى ويؤكده، والجناس التام فى قوله : "اللقوح لقوح غرام"، والطباق فى قوله : "صحة وسقام" وقوله : "ورائى وأمامى".

وإضافة إلى ما تقدم من ملامح الموسيقا الخفية : هناك الألفاظ المنونة المنكرة التى حفلت بها القصيدة فازدادت بها إيقاعًا إلى جانب ما منحته هذه الألفاظ من دلالات التنوين على الزيادة والتكثير، ودلالات التنكير على التعظيم. وهناك الألفاظ التى تكررت أكثر من مرة فأحدثت بتكرارها نغمًا وإيقاعًا تطرب له الأذن، إضافة إلى ما أفادته بعض الألفاظ المكررة مثل تكرار ضمير الذات والمتكلم من دلالة على العزيمة الصارحة.

ويكفى هذا القدر من التحليل الموضوعى والفنى لقصيدة الفرزدق فى إعلان توبته وهجاء إبليس ... تلك القصيدة التى استطاع صاحبها أن يخرج بها من النمط الشائع فى باب الهجاء الشخصى والقبلى إلى نمط إبداعى جديد فى هذا الباب هو هجاء إبليس ... فكانت قصيدته -بحق- من روائع الأدب الإسلامى الهادف إلى غرس القيم النبيلة، ومقاومة التيارات الشريرة فى النفس.

والدرس المستفاد من هذه القصيدة : أن الهجاء فى الأدب الإسلامى يختلف -على نحو ما رأينا- عن الهجاء الشائع فى النقائض، حيث لا ترى فى الهجاء الذى رأيناه من الفرزدق لإبليس إلا نبل الغاية، وسمو المقصد، وروعة المضمون، وجمال الشكل، وحسن الأداء.

## من عيون الرثاء فى العصر الأموى :

# القصيدة الجوساء

## لجريــــر

### التعريف بالشاعر

هو جرير بن عطية بن الخطفى، من قبيلة (كليب بن يربوع) أحد بطون تميم.

يكنى بأبى حزرة، وحزرة ابنه الأكبر، كما يكنى بابن المراغة، والمراغة من الأسماء القبيحة للأتان. لقب نبزت به أمه من أحد الشعراء الذين هاجوه، لأن كليبًا كانت رعاة غنم وحمير.

وقيل فى سبب تسميته جريرا: إن أمه وهى حامل به، رأت فى نومها كأنها ولدت حبلا يلتف على أوساط الناس، فيقطعها، فلما قصت رؤياها على المفسرين قالوا لها: ستلدين رجلاً يتغلب على خصومه، فسمته (جريرا) والجرير: معناه الحبل.

وكنيته أبو حزرة تدل على فقره ورقه حاله؛ لأن الحزرة شجرة ثمرها مر أو حامض.

وكانت لجرير وراثة فى الشعر، فقد عرف أهل بيته به، كان أبوه شاعرًا، وكان جده كذلك، ثم كان أخوه عمرو، وهو أكبر منه، وكان يقارضه الشعر.

ولد بالبادية سنة تسع وعشرين من الهجرة فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، ونشأ فقيرًا يرعى الغنم، ولكنه كان ذا موهبة فطرية فى الشعر. ولعل نشأته البدوية، وفقره، وتأثره البسيط بالإسلام هى التى جعلته

يشب عفيفًا متعففًا عن الخمر، معرضا عن المجون، مقبلا على العبادة، بعكس الفرزدق؛ ولكن ذلك لم يحل دون نهشه الأعراض بهجائه المقذع الفاحش البذئ.

تزوج أكثر من امرأة، ومن أزواجه: (أمامة) التى ورد اسمها فى كثير من شعره، و(سلمى)، و(خالدة بنت سعد أم حزرة).

وأنجب من الأولاد: بنتين وثمانية ذكور، كان يجلس إليهم، يبصرهم بالشعر والشعراء؛ حتى نشأوا جميعًا يجيدون قرض الشعر، ويحسنون نقده، وكان يقول لهم: (أطيلوا الهجاء، وأقصروا الممادحة).

اتصل بالخلفاء والأمراء فى عصره، فقربوه منهم، واتخذه الحجاج الثقفى شاعرًا رسميًا يمدحه، ويوضح منهاج سياسته الحازمة. ثم أوصله بعبد الملك بن مروان، فنال منه جوائز كثيرة، وظل يتكسب بالشعر، ويمدح خلفاء بنى أمية، ويشارك فى كل صراع سياسى طوال حياته.

كذلك شارك فى الصراعات الأدبية، ومن أبرزها: معاركه الهجائية ضد الفرزدق والأخطل والبعيث... تلك التى دامت نحو أربعين سنة، وأخرجت لنا القصائد المشتهرة باسم (النقائض).

نظم الشعر فى أغراض عديدة، ومنها الهجاء الذى تفوق فيه، والفخر الذى ارتبط غالبًا بهجائه، والمدح الذى كان يركز فيه على الوتر الحساس الذى يعجب الممدوح، والغزل الذى دفعته إليه نفسه الصافية، وفطرته المتميزة برقة الشعور، ودقة الإحساس. ثم فن الرثاء النابع عن عاطفة صادقة، ومعاناة مريرة، وقلب يفيض أسى وحسرة على من يرثيه.

توفى سنة ١١٠ هـ، بعد الفرزدق ببضعة أشهر، بعد أن عاش نيفا وثمانين سنة، ودفن باليمامة حيث قبر الأعشى.

## مناسبة القصيدة

كان جرير صاحب طبع رقيق، وعاطفة مشبوبة، وسليقة موهوبة، ونفس يستبد به الحزن والأسى عند النوازل، وشاء القدر الإلهى أن تموت (أم حزرة خالدة بنت سعد)، وزوج جرير، فأوجعه فراقها، وآلمه موتها، واشتد حزنه عليها، ولاسيما أنها قد ماتت فى وقت كان جرير فى أشد الحاجة إلى بقائها فى جواره، حيث كان السن قد تقدم به نحو المشيب، وله منها أطفال صغار فى أمس الحاجة إلى رعايتها. على أنها قد عاشرته معاشرة زوجية كريمة، فلم ير منها إلا الحب والعطف، والكرم والعفاف، والسكينة والوقار.

ومن هنا، فجعه موتها، وأحزنه فراقها، فقام ينوح عليها بهذه القصيدة المعبرة -حقًا- عن تجربة شعورية ذاتية أليمة عاشها، وفيها يقول:

| | |
|---|---|
| ١- لولا الحياء لهاجنى استعبار | ولزرت قبرك والحبيب يزار |
| ٢- ولقد نظرت وما تمتع نظرة | فى اللحد حيث تمكن المحفار |
| ٣- فجزاك ربك فى عشيرك نظرة | وسقى صداك مجلجل مدرار |
| ٤- ولهت قلبى إذ علتنى كبرة | وذوو التمائم من بنيك صغار |
| ٥- أرعى النجوم وقد مضت غورية | عصب النجوم كأنهن صوار |
| ٦- عمرت مكرمة المساك، وفارقت | ما مسها صلف، ولا إقتار |
| ٧- فسقى صدى جدث ببرقة ضاحك | هزم أجش، وديمة مدرار |
| ٨- هزم أجش إذا استحار ببلدة | فكأنما بجوائها الأنهار |
| ٩- متراكب زجل يضىء وميضه | كالبلق تحت بطونها الأمهار |
| ١٠- كانت مكرمة العشير، ولم يكن | يخشى غوائل أم حزرة جار |
| ١١- ولقد أراك كسيت أجمل منظر | ومع الجمال سكينة، ووقار |

١٢- والريح طيبة إذا استقبلتها     والعرض لا دنس، ولا خوار

١٣- وإذا سريت رأيت نارك نورت     وجها أغر يزينه الإسفار

١٤- كانت إذا هجر الحليل فراشها     خزن الحديث، وعفت الأسرار

١٥- صلى الملائكة الذين تخيروا     والطيبون عليك، والأبرار

١٦- وعليك من صلوات ربك كلما     شبح الحجيج ملبدين، وغاروا

١٧- يا نظرة لك يوم هاجت عبرة     من أم حزرة بالنميرة دار

١٨- وكأن منزلة لها بجلاجل     وحي الزبور تخطه الأحبار

١٩- لا تكثرنّ إذا جعلت تلومني     لا يذهبنّ بحلمك الإكثار

٢٠- كان الخليط هم الخليط، فأصبحوا     متبدلين، وبالديار ديار

٢١- لا يلبث القرناء أن يتفرقوا     ليل يكر عليهم، ونهار

## المفردات اللغوية

١- هاجنى استعبار: أثارنى جريان الدمع من عينى.

٢- تمتع: انتفاع، من تمتع بكذا أى انتفع به وأفاد. واللحد: هو الشق فى جانب القبر. والمحفار: اسم لآلة الحفر كالفأس ونحوها.

٣- جزاك: أثابك. والعشير: المعاشر، وفى الحديث: «إنكن تكثرن اللعن وتكفرن العشير» يعنى الزوج، وقال الله تعالى:

﴿ولبئس العشير﴾. والمعاشرة والتعاشر: المخالطة، والاسم (العشيرة) بكسر العين.

الصدى: العطش، أو جثمان الميت وعظامه.

والجلجل المدرار: سحابة ذات رعد ومطر كثير.

٤- الوله: ذهاب العقل واختلاطه، وتحير القلب من شدة الوجد والحزن.

والكبر: كبر العمر، يقال: كبر أى أسن، والاسم: الكبرة والتمائم: جمع تميمة، وهى عُوزَة تعلق على الأطفال. وفى الحديث: (من علق تميمة فلا أتم الله له) قيل: هى خرزة.

٥- أرعى النجوم: أرقبها وأنظر إلى أين تغيب. والغورية: النجوم التى تتجه نحو الغرب للغروب والسقوط. والعصب: الجماعات، والصوار: قطيع البقر الوحشى.

٦- مكرمة المساك: عزيزة العشرة الزوجية. وعمرت: عاشت زمانا طويلا. والصلف: من صَلِفَت المرأة إذا لم تحظ عند زوجها، وأبغضها، فهى صَلِفة. وزعم الخليل: أن الصلف مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا.

والإقتار: الانتقار، وتضييق الرجل على زوجه وعياله فى النفقة.

٧- الجدث: القبر. والبرقة: جبل غليظ فيه حجارة ورمل، والضاحك نقب بالجبل. والهزم الأجش: صوت الرعد فيه بحة لشدته، والديمة المدرار: السحابة الممطرة.

٨- استحار: ابيَضّ. والجواء: الأودية المتسعة.

٩- متراكب: متراكم بعضه فوق بعض. والزجل: صوت الرعد، والوميض: اللمعان. والبلق: جمع أبلق، والفرس الأبلق: ما خالطه سواد وبياض. والأمهار: صغار الفرس جمع مهر.

١٠- الغوائل: الدواهى. وأم حزرة كنية المرثية.

١١- السكينة: الوداعة والوقار.والوقار: الحلم والرزانة والعظمة أيضًا.

١٢- دنس: صفة مشبهة من دنس الشيء إذا توسّخ. وخوار صيغة مبالغة من خور يخور خورًا: بمعنى ضعف وانكسر. والمراد من البيت أنها طيبة الشيم، نقية العرض.

١٣- سريت: من السرى وهو السير بالليل. والوجه الأغر: المشرق الأبيض الجميل. والإسفار: الإشراق من أسفر وجهه حسنا، أى أشرق.

١٤- الحليل: الزوج. وخزن الحديث: عدم البوح بالأسرار.

١٥-الأبرار: الذين يطيعون الله عزوجل، ولا يفعلون الإثم.

١٦- شبح الحجيج: رفع الحجاج أكفهم بالتلبية والدعاء. ومعنى ملبدين: جعلوا فى رءوسهم شيئًا من صمغ ليتلبد شعرهم بقيا عليه لئلا يشعثوا فى الإحرام. أو شبح بمعنى شخص وظهر، بعكس غار بمعنى سفل فى الأرض واختفى.

١٧- هاجت: ثارت. **والعبرة** بفتح العين: تحلُّب الدمع والبكاء أيضًا. والنميرة: بردة من صوف **تلبسها الأعراب.**

١٨- جلاجل: اسم موضع. والزبور: الكتاب، **ويطلق على** كتاب داود عليه السلام، والأحبار **جمع حبر**: رئيس الكهنة عند اليهود.

١٩- الخليط: المخالط **والشريك** والمعاشر.

٢٠- القرناء: جمع **قرين وهو** الصاحب. وقرينة الرجل: امرأته.

## المعنى الإجمالى للقصيدة

يقول الشاعر:

لولا حيائى لبكيت عليك بكاءًا حارًا، وذهبت إلى قبرك لأزورك فيه، فأنت الحبيبة التى تزار، وتجرى دموع العين بكاء عليها، وإنى قد نظرت إليك وهم يحفرون اللحد لجثمانك، ولكنها النظرة التى لم تعودى تنتفعين بها، فجزاك الله فى زوجك الذى فارقتيه نظرة تكون عوضا لك عما حرمت منه، ورضا من الله سبحانه وتعالى، وإنى لأدعو لك ربى بأن يسقى جثمانك وعظامك بماء من سحابه المجلجل المدرار.

ومما يزيد فى ألمى أيتها الزوج الحبيبة أننى قد افتقدتك فى وقت عصيب، إذ تقدم بى العمر، وظهر الشيب فى رأسى، وتركت لى أطفالاً صغارًا هم فى أشد الحاجة إلى عطفك بهم ورعايتك لهم، وإن شدة الوجد بى والحزن عليك لتجعلنى أقضى الليل ساهرًا، أرقب حركة النجوم فى السماء، وهى آخذة نحو جهة الغرب للغروب والسقوط، وكأنهن جماعات تمشى من قطعان البقر الوحشى فى الصحراء.

وليس غريبًا من جرير أن يتفجع على زوجه أم حزرة هذا التفجع، ولا أن يأسى عليها هذا الأسى، فإنها عاشت معه -كما يقول- زمانًا ليس بالقليل، عاشرها خلاله معاشرة زوجية كريمة، وظل معها على هذا النهج إلى أن فارقته لمثواها الأخير، دون أن يمسها منه شيء من البغض أو التضييق عليها فى النفقة، فلم يكن منه نحوها إلا كل حب، وكل كرم.

كما أنها هى الأخرى قد عاشرته معاشرة زوجية كريمة، وعاشت من العمر ما عاشت متسمة بالخلال النبيلة، يأمن جارها غوائلها، وتبدو لزوجها رائعة الجمال، ومع هذا الجمال الباهر، كانت طيبة الشيم، نقية العرض، ذات

وجه مشرق، ورزانة ووداعة وحلم ووقار، لا تحدث أحدًا بريبة، ولا تبوح بالأسرار حتى لو هجرها زوجها مغاضبًا.

لذلك كله راح الشاعر يكرر الدعاء لها، ويلح عليه، ليتغمدها الله برحمته، فدعا لها مرة أخرى بأن يرسل الله السحب الممطرة لتهطل على قبرها ورفاتها مياها عذبة تبلغ فى كثرتها وعذوبتها مبلغ الأنهار التى تجرى فى الأودية المتسعة، وتشبه فى لمعان برقها وما يخالطه من سواد السحب الفرس الأبلق التى تضم صغارها تحت بطونها.

كذلك يدعو الشاعر لزوجه الراحلة بأن يكرمها الله فى قبرها ولحدها بالصلاة الدائمة عليها، منه ومن عباده الطيبين، وملائكته المقربين، وكذلك الأبرار الذين أطاعوا ربهم ولم يقابلوه بالمعاصى.

ويعود الشاعر مرة أخرى للبكاء والأسى على زوجه الحبيبة أم حزرة، تلك التى لم يبكها هو وحده، وإنما بكت عليها دارها التى كانت تسكنها، والمواضع التى خطت عليها، ولا عجب؛ فمنزلة الفقيدة سامية مقدسة حتى لكأنها وحى الزبور، الذى يكتبه ويسطره العلماء والأحبار.

ويختم الشاعر قصيدته الأسية النادبة بخطاب لكل من يلومه على بكائه واستعباره على زوجه الراحلة، فيحذرهم وينصحهم بعدم إكثارهم فى لومه على صنيعه هذا، وألا يذهب بحلمهم إكثاره فى رثاء زوجه والتفجع لرحيلها؛ فلقد خالطته وعاشرته، وذلك أمر ليس هينا، فالفراق صعب، وتبدل الحال عسير، فبالأمس كانت معه، واليوم مع الأموات، وبالأمس كانت تعمر داره، واليوم رحلت إلى الدار الآخرة... وهكذا شأن الناس فى الحياة، يعيشون فيها ما يعيشون، ثم يرحلون عنها إلى غير رجعة، فكل صاحب يترك صاحبه، وكل قرين يفارق قرينه، فإن الموت هازم اللذات، ومفرق الجماعات، وتلك سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا، ما كر ليل وأتبعه نهار.

## الدراسة الفنية والتحليل النقدى

أجمع النقاد على أن جريرا كان -فى شعره- يغرف من بحر وهذا وصف دقيق، يحالف التوفيق.

ذلك أن جريرا -فى صياغته الشعرية- كان مستجيبا للتجارب النفسية، والإثارات الوجدانية، مستلهما سليقة فياضة، وطبعًا دفاقًا، يرسل ال القصيدة متى شاء، ويصرفها كيف شاء، سهلةً عذبة أو فخمة جزلة، قوية رصينة، رائعة الموسيقى، محكمة القافية، خالية من التكلف والحشو والتعقيد.

تتسق قوافيه، وتأتلف ألفاظه ومعانيه، فكأنما يغترف من خضم البحر، ويصب فى معين الشعر، ما تطرب له نفسه، ويعجب به غيره، فجرى شعره على الألسنة، وسرى بين الربوع.

وما من ناقد إلا وقد شهد لجرير بالقدرة على دقة اختيار الألفاظ، ومتانة نسج العبارات، ورعاية الجرس الموسيقى.

وما من قارىء يقرأ شعر جرير إلا ويلمس السهولة والوضوح، والعذوبة والسلاسة، فضلاً عما يراه منه من أخيلة مستمدة من روح البيئة البدوية التى نشأ فيها، وصور متأثرة بروح الدين الإسلامى الذى دان به، ومعان فطرية قريبة المأخذ، معروضة فى ثوب أنيق من الألفاظ الجذابة المؤثرة.

لقد تأثرت نفسه الصافية بالحياة الجديدة، فصورها للناس كما أحبوها، وابتدع لهم فى شعره من فن القول، وجديد المعانى، وضروب الخيال، وسهولة الأساليب، وعذوبة الموسيقى، ما أعجبهم وأطربهم، فتعلقوا به، وأقبلوا عليه يحفظونه، وينشدونه فى كل مكان، حتى اتهمت الجن بإذاعتها، فكان بذلك أكثر أهل زمنه سيرورة شعر، وقربا إلى النفوس.

قال الأخطل للفرزدق -ذات يوم-: «أنا والله أشعر من جرير غير أنه رزق من سيرورة الشعر ما لم أرزقة»!!

وقال مروان بن أبى حفصة:

**ذهب الفرزدق بالفخار وإنما حلو القريض ومره لجريـــر**

ودخل الفرزدق ذات يوم على السيدة (سكينة بنت الحسـين) وكانت بصيرة بالشعر تجيد نقده وتذوقه، فقالت له: من أشعر الناس؟

قال: أنا

قالت: كذبت أشعر منك الذى يقول:

**لولا الحياء لها جنى استعبار ولزرت قبرك والحبيب يزار**

وصدق هؤلاء النقاد فيما قالود عن جرير وشعره: فإن القصيدة الجوساء التى سبق عرض أبياتها، وتقدم شرح ألفاظها ومعانيها، مثال صادق، وشاهد حى على ما قرره هؤلاء النقاد.

فهى من جيد شعره، وفيها تبدو عذوبة نفسه، وشجو أنينه، وتأثره بآى الذكر الحكيم، وفيها عناصر الصدق العاطفي، والوضوح الفكرى، وجودة التعبير، وروعة الموسيقى، وإحكام القافية، ونبل الغرض.

وحسبها من المزايا العديدة فيها: أنها تملأ القلب أسى وحسرة، وتنبع من معاناة مريرة، وتعبر عن تجربة شعورية ذاتية عاشها جرير، واكتوى بنارها.

ولجودة هذه القصيدة، وروعة محتواها الفكرى والتعبيرى والنغمى، فإن الرواة قد تناقلوها، وبكـى بها الباكون، وسارت أبياتها بين البلاد طولاً وعرضًا، حتى إن قوم الفرزدق ناحوا بها على (النوار) زوج الفرزدق، حين ماتت، ولم يستطع الفرزدق رثاءها بشىء يناح به عليها، وكان ذلك عليه أشد من القتل لغيرته وحسده.

ولذلك سماها جرير (الجوساء) من جاس جوسا وجوسانا بين البيوت والدور بمعنى تردد وطاف بينهـا، وقيل: سماهـا (الحوساء) بالحاء، والروايتـان صحيحتان، لأن الجوس والحوس بمعنى واحد هو التردد والطواف، أو الذهـاب والمجيىء، ومن هنا قرىء قول الله تعالى (فجاسوا خلال الديار) بالجيم والحاء.

ومما يلفت النظر في هذه القصيدة: أن جريرا كان حريصًا على التصريح بتلك الكنية (أم حزرة) التى كانت تكنى بها الفقيدة فى حياتهـا، بل يحرص على تكرار هذه الكنية فى القصيدة، مما يوحى بشدة حبه إياهـا وإخلاصه لهـا، واستشعاره اللذة والمتعة فى ذكر هذه الكنية وترديدها.

بل يلفت النظر أنه قد تعمد أن يكون روى القصيدة: حرف الراء، الذى هو أصلاً من حروف تلك الكنية، وفضلاً عن الروى، فإنك تجد هذا الحرف فى كل بيت من القصيدة، وجاءت القصيدة محتشدة بكلمات رائية مثل: (استعبار -قبر- زرت- نظرت- نظرة- ربك- عشير- كبرة- أرعى- غورية- عمرت وفارقت- مكرمة- برقة- استحار- متراكب- أراك- منظر- الريح- العرض- سريت- نار- نورت- أغر- هجر- فراشها- تخيروا- النميرة- الزبور- لا تكثرن- الديار- القرناء- يكر).

على أن حرف الراء فى اللون الأدبى للقصيدة وهو (الرثاء)، وفى اسم ناظمها (جرير).. وهكذا يمثل هذا الحرف عاملاً مشتركًا بين هذه الأطراف جميعًا.

كذلك يلفت النظر: حرص الشاعر على الدعاء للفقيدة كثيرًا في ثنايا عرضه الشعرى الرائع لتلك اللوحة الفنية الحزينة التى امتزج فيها شعوره الآسى، وعاطفته الحزينة بتعداد مكارم زوجه ومناقبها.

على أن القصيدة تبرز لنا جريرا فى صورة الزوج الوفى لقرينته، فى الحياة، وفى الممات... وكيف كان هذا الشاعر جياش العاطفة، مرهف الحس، تغلى عاطفته بالألم، ويتوله قلبه بالأسى، وتتمزق نفسه بالحسرة، حينما يفقد عزيزًا لديه، حتى إنه ليصرخ وينوحُ بمثل قوله: «يا نظرة لك يوم هاجت عبرة من أم حزرة بالنميرة دار»، وفى هذا درس تعليمى يلفت أنظار الرجل... كل رجل.. لضرورة الوفاء بزوجه وأهله قبل الممات، وبعد الممات.

إن القصيدة -كما سبق التلميح- تمتلىء بالمشاعر الصادقة، وتفيض باللوعة المتقدة، مما كان له الأثر البارز فى كل عناصرها.

فالأفكار تبدو عليها المسحة الآسية الحزينة، سواء تلك التى تتصل بلوعة الشاعر وأساه وحسرته على زوجه الراحلة، أم التى تتعلق بمناقب وصفات الفقيدة، أم التى ترتبط بدعاء جرير لأم حزرة أن يتغمدها الله وملائكته والطيبون والأبرار بالرحمة والرضوان.

وأفكار الشاعر فى كل هذه المحاور التى تدور حولها الأبيات: أفكار قوية واضحة، وفيها قدر من التفصيل والتحليل لا بأس به.

غير أن الشاعر لم يرتب الأبيات التى يدعو فيها للفقيدة وراء بعضها، وإنما ذكر طرفًا منها هنا، وطرفًا هناك. وكذلك الأمر بالنسبة للأبيات التى يظهر فيها أساه وألمه. ولكن الحالة النفسية الكئيبة التى ألمت به كان لها أثرها الواضح فى إخراج القصيدة على هذا النحو، فهى فى جملتها صرخات زوج ملتاع، يقطر قلبه ألمًا، وتتمزق نفسه ومشاعره فى غير نظام ولا ترتيب.

ونظرًا لتلك العاطفة الحزينة الجياشة، فإننا نرى الخيال يلعب دورًا بارزًا فى إنتاج الصور التى تشيع الروعة فى أسلوب القصيدة، ولذلك يقول النقاد دائمًا: (إن الخيال وليد العاطفة).

ففى البيت الرابع -مثلاً- «ذوو التمائم» كناية جميلة عن الأطفال الصغار، وسر جمالها: أنها أتت بالمعنى مصحوبًا بالدليل عليه، وهى توحى بمدى ضعف هؤلاء الصغار، وشدة حاجتهم إلى رعاية أمهم التى افتقدوها.

وفى البيت الخامس: (عصب النجوم كأنهن صوار) تشبيه لبيان حال المشبه، وهو أن مجموعات النجوم فى اتجاهها نحو الغرب تشبه مجموعات البقر الوحشى وهى تسير فى الصحراء. وسر جمال هذا التشبيه: التجسيم والتشخيص.

وفى البيت الثامن: (فكأنما بجوائها الأنهار) تشبيه كذلك يبرز لنا المطر المتساقط على قبر المتوفاة فى صورة الأنهار الجارية بكثرة وغزارة فى الأودية المتسعة. وهو يوحى بالعذوبة والغزارة والصفاء.

وفى البيت التاسع: «وميضه كالبلق تحت بطونها الأمهار» تشبيه لبيان الحال كذلك، فقد شبه لمعان البرق وسط السحب الداكنة بالفرس التى يخالط بدنها سواد وبياض، وتحت بطونها أمهارها وسر الجمال فى هذا الصورة أنها توضح المعنى، وتوحى بالحسن.

وفى البيت العاشر: كناية جميلة عن معاملة أم حزرة لجيرانها بلطف وإحسان. وهى توحى بحبها لجيرانها، وتمسكها بالإسلام الذى وصى بالجار ومعاملة الناس معاملة حسنة.

وفى البيت الحادى عشر: «كسيت أجمل منظر ومع الجمال سكينة ووقار» استعارة مكنية، فقد شبه الجمال الباهر لأم حزرة بثوب جميل، ثم حذف المشبه به، ودل عليه بشىء من خصائصه، وهو (الكسو)، وفيها تشخيص، وإيحاء بجمال الفقيدة من رأسها إلى قدمها. على أن قوله بعد ذلك: (ومع الجمال سكينة ووقار) يومىء إلى أنها جميلة المظهر والمخبر لا ينفصل جمالها الظاهرى عن جمالها الباطنى المتمثل فى وداعتها وحلمها ورزانتها.

وفى البيت الثانى عشر: «والريح طيبة» كناية عن نقاء الشيم، ووصف عرضها بعدم الدنس والخوار يؤكد عفافها ونقاءها.

وفى البيت الرابع عشر: «هجر الحليل فراشها» كناية عن صفة الغياب عنها أو الغضب منها. وهى توحى بالبعد والضيق النفسى.

وفى البيت السابع عشر: «يا نظرة» استعارة مكنية، فقد شبه النظرة بإنسان يسمع النداء، وحذف المشبه به، ودل عليه بشىء من خصائصه وهو النداء. وفيها تشخيص للنظرة، كأنها كائن حى يسمع النداء، وهى توحى بالتحسر وشدة الألم، وكثرة الحنين والتلهف على عودة تلك النظرة. وكذلك قوله (هاجت عبرة من أم حزرة دار) استعارة مكنية، فقد تخيل الدار إنسانًا يذرف الدمع، وفيها تشخيص وإيحاء بأن الحزن على أم حزرة قد شمل الإنسان والمكان.

وفى البيت الثامن عشر: تشبيه رائع يستمده الشاعر من ثقافته الإسلامية، حيث نرى المشبه به (وحى الزبور تخطه الأحبار).

أما التشبيهات الأخرى التى سبق إيضاحها، فكلها مستمدة من البيئة البدوية التى نشأ فيها جرير.

ومما لاشك فيه: أن جميع الصور الخيالية التى سبق بيانها: صور حية تنبض بالحياة والحركة، وتومىء إلى توفيق شاعرنا فى الصياغة الفنية للقصيدة.

وهكذا يلحظ الدارس هذا التوفيق حين يتأمل الألفاظ والعبارات والأساليب والموسيقى فى القصيدة. فالألفاظ مختارة بعناية، موحية بالأسى، ملائمة للعاطفة، مناسبة لإظهار اللوعة، وتعداد المناقب، وبث الدعاء. فنحن نرى -على سبيل المثال- هذه الألفاظ:

(استعبار -اللحد- جدث- عبرة-وله- يتفرقوا- أجمل منظر-

سكينة- وقار- عفت الأسرار- جزاك ربك- صلى عليك- الطيبون- الملائكة- الأبرار-...إلخ) وكل لفظ من هذه الألفاظ ونحوها له دلالته الخاصة، وإيحاءاته المتميزة.

ولا مراء فيما تمتاز به من عذوبة وسلاسة، ووضوح وفصاحة، وابتعاد عن الغرابة والابتذال، مما يؤكد براعة الشاعر فى التعبير الأدبى، واغترافه من البحر كما قال النقاد.

ولا نغلوا إذا قلنا: إننا حين نقرأ هذه القصيدة نجد أنفسنا فى روضة من رياض التوفيق التعبيرى، فالشاعر -مثلاً- بالغ الدقة فى استخدام الفعل الماضى فى تصوير أحزانه، والدعاء للراحلة (هاجنى -نظرت- جزاك- ولت- عمرت وفارقت- سقى -استحار -كانت -سريت - رأيت -نورت -هجر -عفت -صلى -خزن -شبح -أصبحوا) فكل هذه الأفعال الماضية ونحوها يستخدمها الشاعر للإيحاء بأن ذلك كله قد حدث فعلاً، ولا ينبغى لأحد أن يشك فى وقوعه.

وكان الشاعر بالغ الدقة كذلك فى استخدام الفعل المضارع فى بعض الأبيات، للإيحاء بأن الأحداث -هنا- تتجدد وتتوالى بكثرة، فقوله -مثلاً- "والحبيب يزار" يوحى بتوالى هذه الزيارة وتجددها. وقوله: (ولقد أراك) يوحى بتوالى الرؤية وتجددها، وهكذا الأمر فى بقية المضارعات.

هذا ويلحظ الدارس مدى حرص الشاعر على استخدام الألفاظ الدالة على التحقيق، وعلى تأكيد ما ذكره، فهو قد استخدم -مثلاً- (إذا) فى خمسة أبيات مس السهل مراجعتها، واستخدم اللام الموطئة للقسم مقترنة بقد ومسبوقة بواو القسم فى مطلع البيت الثانى، ومطلع البيت الحادى عشر، واستخدم نون التوكيد الثقيلة فى البيت التاسع عشر.

كذلك يلحظ الدارس ما فى التركيب الشعرى للأبيات من قوة وإحكام، وبراعة، فضلاً عن ذلك التنويع الرائع فى الأساليب، حيث نراها خبرية لإظهار الأسى والحسرة فى أغلب أبيات القصيدة. كالبيت الأول والأخير مثلاً.

ونراها خبرية لفظًا وإنشائية معنى والغرض منها الدعاء للفقيدة فى بعض الأبيات، كالثالث والسادس عشر مثلاً، ونراها إنشائية لفظًا ومعنى والغرض منها التحسر كما فى لبيت السابع عشر، أو الغرض منها التحذير، كما فى البيت التاسع عشر.

ويلحظ الدارس -أيضًا- ما حليت به القصيدة أحيانًا من محسنات بديعية طبيعية تخدم الفكرة، وتكسب الأسلوب نغمًا، مثل الطباق بين (سقى وصدى) وبين (ليل ونهار) وبين (عمرت وفارقت) وبين (كبار وصغار).

ومثل الجناس الناقص بين (زرت ويزار) وبين (نار ونورت)، وبين (تكثرن والإكثار) وما شابه ذلك.

أما الموسيقا فى القصيدة فرائعه حقًا، ومتمثلة بكل ألوانها الظاهرة والخفية ، فالموسيقى الظاهرة تنبع من الوزن الواحد، والقافية الواحدة، والموسيقى الخفية التى هى أبرع أنواع الموسيقى فى الشعر تنبع من المحسنات البديعية التى سبق التمثيل لها، ومن جمال الخيال، وإيحاءات الألفاظ، وما إلى ذلك.

وفي القصيدة -مع كل ما ذكر- وحدة ذات جناحين يتمثلان فى وحدة موضوعها، وفى وحدة الجو النفسى بالملاءمة بين ما توحيه الألفاظ والصور وبين الحالة النفسية الحزينة لجرير.

وفى القصيدة -أيضًا- ملامح بينة لتأثر هذا الشاعر بألفاظ القرآن الكريم ومعانى الإسلام، ويكفى أن نسمع فى القصيدة مثل هذه الألفاظ:

(جزاك ربك نظرة - صلى عليك الملائكة - الطيبون -الأبرار - السكينة - الوقار - وحى الزبور - الأحبار).

كذلك نجد فى القصيدة ما يصور البيئة العربية البدوية مثل الإشارة إلى اللحد -المحفار -التمائم -البقر الوحشى -برقة ضاحك -الفرس -الأمهار - النميرة -جلاجل).

والخلاصة: أن هذه القصيدة تمثل لنا الخصائص الفنية التى نراها فى شعر جرير، وقد اكتملت فيها كل المقومات الفنية لأسلوب الشعر الممتاز.

### قصيدة المقنع الكندى فى صلة الرحم :

يقول :

١- يُعاتِبُنى فى الدَّيْن قومى؛ وإنَّما ... دُيونِىَ فى أشياء تُكْسِبُهم حمْدَا

٢- أَسُدُّ به ما قد أخَلُّوا وضيَّعُوا ... ثُغورَ حقوق ما أطاقوا لها سدَّا

٣- وفى جَفْنةٍ ما يُغلَقُ البابُ دونها ... مُكلَّلةٍ لحمًا مُدَفَّقةٍ ثَرْدا

٤- وفى فرس نهْدٍ عتيق جعلتُه ... حجابا لبيْتِى ثُمَّ أخدمْتُه عبْدا

٥- وإن الذى بينى وبين بنى أبى ... وبين بنى عمى لمختلفٌ جدًّا

٦- إذا أكَلُوا لحمِى وَفرْتُ لحومهم ... وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

٧- وإن ضيَّعوا غيْبى حفِظْتُ غُيوبهم ... وإن هُمْ هوَوْا غيِّى هَويتُ لهم رُشْدا

٨- وإن زجروا طيرا بنحْسٍ تَمُرُّ بى ... زجرْتُ لهم طيْرًا تَمُرُّ بهم سعْدا

٩- ولا أحْمِلُ الحِقْد القديمَ عليهمُ ... وليس رئيسَ القوم منْ يحملُ الحقدا

١٠- لهمْ جُلُّ ما لِى إن تتابعَ لى غِنًى ... وإن قلَّ مالى لم أُكلِّفْهم رفْدا

١١- وإنِّى لعبد الضيف مادام نازلاً ... وما شيمةٌ لى غيرُها تُشْبِهُ العبْدا[1]

---

[1] تاريخ الأدب العربى لعمر فروخ : ١ / ٤٢١، والجفنة : الوعاء الواسع. والفرس النهد العتيق : العالى الأصيل الكريم الجيد. والبيت : بيت القوم (القبيلة). وأكل اللحم : التقول على المرء بالسوء والقول الذى يؤلمه. والغيب : السر. والرفد : العطاء.

# تحليل وتعليق

لا شك أن صلة الرحم من دعائم البناء السليم للمجتمع، فإذا انعدمت تلك الرابطة بين ذوى القربى تفرق شملهم، وتشتت جمعهم، وسهل على الأعداء غزوهم والنيل من سيادتهم. ولا شك أن العز لا يتحقق للإنسان إلا بالتعاون والائتلاف والاتحاد والمحبة مع ذوى قرباه -حتى يرهبه الآخرون، ويبتعد عن حماه الطامعون. لذلك فهو مطالب بتقديس صلة الرحم، والتغاضى عن هفوات الأقارب، والتسامح عن إساءة العشيرة، والتجاوز عن هفوات أهله، حفاظًا على صلة الرحم، وأملاً فى خير أهله.

لقد كان العرب فى جاهليتهم يقدسون هذا الخلق، ويتمدحون به، ويندون بقطع الأرحام، وجاء الإسلام فحث على تلك الرابطة بعد أن هذب فلسفتها وحدّ من غلوائها، فقال الله تعالى : ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وقال -أيضًا- : ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾، وقال الرسول ﷺ : «لا يدخل الجنة قاطع رحمه» وجاء فى الحديث القدسى : (أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها اسمًا من اسمى؛ فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته).

والمتتبع للشعر العربى يظفر بقصائد عديدة تدور حول التمدح بهذا الخلق الكريم، وتقديس تلك الرابطة. وكلها قصائد تبدو وكأنها غناء عذب وأناشيد حلوة يترنم بها الشعراء. ولما كان من الصعب الإحاطة بها جميعًا فإننى اخترت منها القصيدة السالفة وهى تفصح عن اعتزاز الشاعر العربى بهذا الخلق وتمجد صلة الرحم وتصور معاملة الأهل بالحسنى وإن أساءوا. وقائلها شاعر من شعراء العصر الأموى هو "المقنع الكندى" المعروف بجودة الإبداع وفصاحة

اللفظ ومتانة السبك وإن كان مقلاً. وكان المقنع قد «نشأ فى بيت وجاهة وسيادة، ولكنه كان متخرقًا فى عطاياه (كثير السخاء) سمح اليد بماله، لا يرد سائلاً عن شىء حتى أتلف كل ماخلفه أبوه من مال، فاستعلاه بنو عمه بأموالهم وجاههم. ثم إنه أحب ابنة عمه (بنت عمرو بن أبى شمر) فخطبها من إخوتها فرفضوا أن يزوجوه إياها، وعيروه بفقره وإسرافه وبالديون التى كانت عليه»[1]، فنظم هذه القصيدة موضحًا سبب ديونه الكثيرة، ومصورًا ما بينه وبين إخوته وبنى عمه من أوجه الخلاف الشديد.

والقصيدة -كما ترى- من النماذج الرائعة فى تصوير صلة الرحم والحفاظ عليها والتمسك بها مهما كانت إساءة الأهل للإنسان. وصاحب القصيدة -كما يفهم من البيت التاسع- كان يحتل مكان الصدارة فى قومه؛ فليس من الغريب إذا قابل إساءة إخوته وبنى عمه إليه بالإحسان إليهم، ولا من الغريب -مادام شاعرًا- أن يقدم لقرائه وسامعيه تلك اللوحة الفنية الرائعة التى تصور مدى التباين والتضاد بين معاملته لأهله، ومعاملتهم له، والتى تعرض لقطات منوعة من جملة القيم الرفيعة التى كان العربى القديم يعتز بها، وينظر إليها على أنها من الأمور التى يتحتم على الرجل الفاضل التخلق بها، ولاسيما إذا كان زعيمًا لقومه.

وإذا كانت الأبيات تنم عن عاطفة الفخر والاعتزاز بصلة الرحم، والتخلق بالقيم الفاضلة؛ فإنها فى الوقت ذاته تكشف عن العاطفة الآسية الحزينة لما كان يلقاه صاحبها من سوء معاملة إخوته وبنى عمه له.

والحديث عن مضمون القصيدة وقيمها الموضوعية يقتضى تقسيمها إلى قسمين مترابطين أشد الارتباط :

---

[1] السابق: ١ / ٤٢٢.

القسم الأول (من ١ : ٤) وفيه يشير الشاعر إلى عتاب قومه له على ما حل به من ديون كثيرة، ثم يوضح أسباب هذه الديون، فيذكر أنه استدان المال حين رأى بعض قومه يضيعون أو أوشكوا أن يضيعوا عددًا من حقوق القبيلة، فاضطرهو إلى الاستدانة حتى يحافظ عليها. وواضح أن الشاعر فى ذكره لهذه السبب لم يفصح عن سبب عجزهم عن المحافظة على الحقوق المشار إليها، وهذا -فى تقديرنا- يحتمل أحد أمرين : إما اتصافهم بصفة البخل، وإما فقرهم الشديد، والاحتمال الأول هو الصواب عندنا؛ فقد سبق أن ذكرت أن بنى عمه قد استعلوه بأموالهم وجاههم. وواضح -كذلك- أن بنى عمه كانوا يقفون من بقية أفراد القبيلة موقفًا سلبيًا؛ حيث أخلوا بحقوق القبيلة عليهم، وضيعوا كل ما تقتضيه أواصر القربى من ترابط وتعاون .. الأمر الذى يوحى بأن نظرتهم إلى الحياة كانت نظرة مادية بحتة، يطغى فيها إحساس الفرد بذاته على إحساسه بإخوته وبنى عمومته، ويتوجه كل واحد منهم إلى بناء مجده الخاص، دون التفات إلى ما ينبغى أن يكون لذوى قرباه من أمجاد.

وذكر الشاعر -أيضًا- أنه استدان المال ليتمكن من توفير القرى (لحمًا وخبزًا) لمن يحل على القبيلة ضيفًا .. وهذا معناه أنهم كانوا يغلقون أبوابهم هربًا من الضيفان فيتحمل هو -باعتبارد صاحب الصدارة فيهم- مسئولية إكرام الضيف .. الأمر الذى يوحى -أولاً- بجوده، وحرصه عليه، ويوحى -ثانيًا- بحرصه الشديد على أن تكون صورة القبيلة -فى عيون الناس- صورة مشرفة، فلا يعرف عنهم أنهم قوم بخلاء يتخلون عن إكرام الضيف، ولا يقومون بالواجب الذى تحتمه البيئة والتقاليد العربية.

وذكر الشاعر -أيضًا- أنه استدان المال ليوفر الخيل القوية المدربة التى تمكنه من حماية القبيلة والدفاع عنها وقت البأس.

والمتأمل لهذه الأسباب التي ذكرها الشاعر لاستدانته يجد أنه كان يستحق عليها الشكر والتقدير من قومه بدلاً من اللوم والعقاب؛ فقد أفصح في الشطر الثاني من البيت الأول : أن ديونه كانت بسبب هذه الأمور الثلاثة فقط، وأنها أمور تكسبهم حمدًا بين الناس، وترفع منزلتهم بين القبائل، وتحقق لهم مجدًا وشرفًا وسمعة طيبة، وأنه لو لم يقم بما قام به من واجب الضيافة للغرباء، وإعداد السلاح للأعداء، لضاعت سمعتهم، وتلاشت هيبتهم، وانحطت مكانتهم في مجتمع كان السخاء له ديدنًا، والدفاع عن القبيلة فيه أمرًا حتمًا.

هذا عن القيم الموضوعية في القسم الأول من القصيدة. وأما القسم الثاني فقد عرض فيه الشاعر لقطات متنوعة من المفارقة بينه وبين إخوته وبني عمه، وهي لقطات تبرز مدى الخلاف الشديد بين معاملتهم له ومعاملته لهم؛ ويظهر من خلالها التناقض التام بين موقفهم منه، وموقفه منهم؛ فقد كانوا يغتابونه ويتقولون عليه سوءًا وقولاً قبيحًا، وكان هو بعكس ذلك. وكانوا ينالون من مجده، ويعمدون إلى تقويضه حقدًا عليه، فكان يرد على هذا بعكسه أيضًا، فيقيم لهم المجد، ويحفظ لهم السمعة الطيبة والأثر الحسن بين الناس، ولا يعتبر ذلك منة عليهم؛ بل يراه واجبًا حتمًا لابد أن يضطلع به بحكم انتمائه لهم وحرصه على مجدهم من جهة، وبحكم تبوئه مركز الصدارة فيهم من جهة أخرى. وكانوا يذيعون أسراره؛ ولا يدافعون عنه إذا سمعوا أحدًا يذكره بسوء، فكان يرد على هذا بما يغايره تمامًا. وكانوا يحبون له الضرر والخسارة والضلال في الوقت الذي يمتلئ قلبه بحب النفع والنجاح والهداية لهم. وكانوا يتمنون له كل شر، بينما يتمنى هو لهم كل خير. وكانت قلوبهم تمتلئ بالأحقاد الدفينة عليه بينما هو منزه من هذا الخلق الذميم، ولا غرو فرئيس القوم لا يحقد على أهله، وليس لهم منه إلا الحب كل الحب. وكان يعطيهم أغلب ماله في حال

الوفرة والغنى، ويمتنع عن طلب العون منهم عند الفاقة. وقضى حياته عبدًا للضيف -سواء كان نازلاً عليه أو نازلاً عليهم- يجود عليه مهما كلفه الجود، ويخدمه مهما شقت عليه الخدمة؛ لأن إكرام الضيف شيمة أصيلة لديه؛ ولأنه واحد منهم ينوب عنهم في هذا المجال؛ بل هو شيخهم الحريص على كل ما يحقق للقبيلة سمعة طيبة في مجتمع اتصف بالجود، وبالغ في إكرام الضيف.

ويلحظ الدارس أن الشاعر قد انتقل من القسم الأول للقسم الثاني بواسطة العطف بالواو المتلوة بإن المؤكدة، فقال :

وإن الذي ............... إلخ.

وكان في إمكانه أن يقول : ولكن الذي ..... أو يلجأ إلى العطف بغير الواو كالفاء، وثم؛ لكنه آثر العطف بالواو وإن المؤكدة دون غيرها من أدوات الربط السالفة، لأن الربط (بالواو وإن) يجعل ما قبلهما متحدًا بما بعدهما حتى يصبحا كأنهما كلام واحد. وذلك لا يحدث عند الربط بالأدوات الأخرى. على أنه قد جعل اسم إن المنصوب اسمًا موصولاً (الذي)، ومعروف أن الموصول لا يتضح بدون الصلة، وذلك يجعل ما بينه وبين إخوته وبني عمه من خلاف جد كبير وغير محدود. وقديمًا ذكر النقاد العرب -من أمثال عبد القاهر الجرجاني- أن الربط بين الجملتين بإن المؤكدة ذو قيمة فنية عالية، وضربوا لذلك أمثلة عديدة، كقول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وقول بشار بن برد :

**بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير**

وقول آخر :

**جاء شقيق عارضًا رمحه إن بني عمك فيهم رماح**

وقال النقاد -في بيان القيمة الفنية للربط بإن المؤكدة- : إنها تقوم بما تقوم به الفاء من الربط بين الجملتين، وتزيد على ذلك أمرًا عجيبًا؛ فالكلام معها مستأنف، مقطوع وموصول معًا. كما أنها تهيئ الفكرة لأن يكون لها حكم المبتدأ، أى أن تكون محدثًا عنها حتى وإن لم يكن لها مسوغ.

ولا أغلو إذا قلت : إن إيثار الشاعر لهذه الأداة فى الربط بين قسمى القصيدة مثال واحد من عشرات الأمثلة الدالة على أن الوعاء الفنى لتجربته الشعرية وعاء فى ذروة البلاغة العربية، ويتبوأ أعلى مكان فى سماء الفن؛ فكل كلمة، وكل عبارة، وكل صورة جاء بها لم تكن إلا رافدًا للمعنى الذى وضع قصيدته من أجله.

يؤكد هذا أنك لو تفحصت القصيدة وجدت فيها علاوة على ما سبق:

- استخدامه -فى بعض الأبيات- الأفعال والمشتقات الدالة على الكثرة والتتابع ووقوع الحدث غير مرة.
- واستخدامه -فى أبيات أخرى- الأفعال الدالة على تحقق الوقوع.
- وإيثاره الألفاظ ذات الإيحاءات المتعددة.
- والتناسب الواضح بين الوعاء الفنى وموضوع التجربة.
- والنقاء فى السياق.
- والبعد فى التركيب عن الغموض والتواء القصد.
- وإيثار الفعل المبنى للمجهول إذا اقتضى المقام ذلك.
- واستعمال أساليب القصر، والتنويع بينها.
- والإكثار من الكنايات فى التصوير لبلاغتها العالية المعروفة.
- واختيار البحر العروضى المناسب لموضوع القصيدة.

- ثم أسلوب المقابلة التى اتكأ عليها فى تصوير موقفه وموقف إخوته وبنى عمه.

- هكذا أقول حين أجمل القول باختصار عن القيم الفنية الرفيعة فى هذه القصيدة التى تعد -بحق- من أروع الشعر المتحدث عن "صلة الرحم" والشعر المنشود حول أبناء العم، والشعر المتسم بالروح الإسلامية.

فإذا كان لابد من التفصيل، فانظر -مثلاً- إلى قوله : «يعاتبنى فى الدين قومى» فإن هذه العبارة تشعر القارئ بأن الشاعر كان ذا مال، وأنه أضاع ماله، فاستدان، وبدلاً من أن يقف معه بنو عمه وإخوته فى هذه المحنة راحوا يوجهون له العتاب واللوم -لا مرة واحدة؛ بل مرات ومرات- متجاهلين الظروف التى أوقعته فى هذه المحنة. على أن الفعل (يعاتب) يوحى -من ناحية أخرى- بعلو مكانته أو -على الأقل- أنه ليس أقل منزلة ممن يعاتبه، بخلاف "يلوم" مثلاً الذى قد يكون من الكبير للصغير أو من الأعلى للأدنى. وإذا كان العتاب دليل المحبة -كما يقال- فمعنى هذا أن ما كان بينه وبين بنى عمه وإخوته من اختلاف شديد لم يضيع مكانته فى عيونهم، ولا كان سببًا فى بغضهم له، وعدم توقيرهم إياه. وكان هو تحت كل الظروف يأسرهم بإحسانه، ويجمعهم بمعروفه، ويصل ما قطعوه، ويبنى ما هدموه، ويحفظ ما ضيعوه. وكل هذه الدلالات تتولد من خلال التعبير بالمضارع (يعاتب) دون سواه.

وهكذا الشأن فى الدلالة والإيحاء لو نظرت إلى بقية المضارعات الواردة فى النص مثل (أسد - تكسبهم - أحمل - يحمل - أكلف) فكلها توحى بوقوع ما تعبر عنه غير مرة. وهكذا الحال -أيضًا- فى الفعل الماضى (تتابع) الذى استعمله فى مجال ما يقدمه لإخوته وبنى عمه من العون فى حال

وجود الغنى، فإن هذا الفعل وبالصورة التى جاء عليها يوحى بأن الضائقة المالية التى يعاتبه قومه عليها إنما هى أزمة طارئة، وأنها لن تستمر. كما يوحى بأن رفده لهم كثيرًا ما يحدث، وأن عطاياه لا تتوقف إلا عند الفاقة -ونادرًا ما تحدث- ومما لا شك فيه أن هذه الإيحاءات تسهم فى عمق الإحساس بالمرارة والأسى وهى الغاية التى يعبر عنها شاعرنا المقنع. وهكذا الحال -أيضًا- فى وصفه للجفنة التى يقدم فيها الطعام للضيف بأنها جفنة مكللة لحمًا مدفقة ثردًا؛ فإن "مكللة" و"مدفقة" اسما مفعول مشتقان من الفعل المضعف "كلل" و"دفق" على التوالى، والفعل المضعف يشير -كما نعرف- إلى الكثرة والتوالى، وذلك أوقع فى الدلالة على الكرم الزائد والجود البالغ. على أنه قد أبرز اللحم وهو فى الجفنة فوق الثريد فى صورة بديعة حين استعار له الإكليل الذى يوضع على الرأس مرصعًا بالجواهر للزينة .. الأمر الذى يوحى بكثرة اللحم وجودته وظهوره بشكل واضح جميل فوق المأدبة. وعلى أنه قد أجاد فى تقديم اللحم المكلل على الثريد المتدفق لاعتبارات القافية من ناحية، ولأن اللحم مقدم على الثريد من ناحية أخرى. وعلى أنه قد آثر التعبير عن إناء الطعام بلفظ "الجفنة" وهى الوعاء الكبير الواسع للدلالة على السخاء والمبالغة فى الكرم. وعلى أنه قد وصف الجفنة بأنها جد واسعة تملأ البيت حتى لا يستطاع إغلاق بابه، أو أن باب بيته مفتوح دائم لكل ضيف، فليس ثمة حاجز إطلاقًا بين القرى والضيف. وفى هذا ما فيه من الإيحاء بالجود البالغ والعناية بإكرام الضيف.

وانظر -مثلاً- إلى الأفعال : (أخلوا - ضيعوا - ما أطاقوا) فهذه الأفعال تكشف عن خوفه من أن يعرف قومه بأنه يخلون بحقوقهم القبلية، ويضيعون ما يحقق لهم الذكر الحسن، ولا يستطيعون الحفاظ على القيم التى

يعتز بها العربى ومن ثم فهو يحرص على القيام بما فرطوا فيه. كما تكشف هذه الأفعال عن مدى الجهد الذى عاناه فى سبيل القيام بذلك.

وانظر كيف عبر عن وسائل الدفاع التى أعدها لحماية القبيلة من أعدائها بالفرس القوى المربى تربية ممتازة والمدرب تدريبًا جيدًا، فهذا مجاز مرسل علاقته الجزئية حيث عبر بالجزء عن الكل. ولا غرو فى اختياره الفرس بالذات من وسائل الدفاع؛ فالفرس -كما هو معروف- كان نقطة مضيئة فى حياة العربى القديم؛ فكان يعنى بتربيته، ويتفنن فى تدريبه، ويثنى عليه فى وصفه، ويبكيه إذا مات؛ لأنه يسهم فى صنع مجده، ويساعد فى انتصاراته.

وانظر : كيف عبر عن حقوق القبيلة بالثغور؛ فهذه استعارة مكنية مشخصة تبرز هذه الحقوق فى صورة المواقع الحربية التى يتحتم الدفاع عنها حتى لا يستولى عليها الأعداء .. وقد حمل الشاعر نفسه مسئولية الدفاع عنها حين تبين له عجز قومه عن الدفاع.

وانظر : إلى بناء الفعل للمجهول فى قوله : "وفى جفنة ما يغلق الباب دونها" ففى مجيئ الفعل على هذه الصيغة دلالات عدة ما كانت لتتحقق لو جاء مبنيًا للمعلوم. وهذه الدلالات هى :

**أولاً** : القيام بواجب الكرم على أحسن ما يكون الأداء؛ فلا حاجز بين الضيوف والقرى، وفى هذا إيحاء بكثرة المترددين عليه.

**ثانيًا** : الإشارة إلى أن جميع أهل البيت -صغارًا وكبارًا- لا يغلقون الباب، ولا يحولون بين الضيف وما يريد.

**ثالثًا** : أن الشاعر ذو مكانة رفيعة، فلم يقل : "وفى جفنة ما أغلق الباب دونها" لأن من كانوا مثله من السادة الكبار لا يقومون بمثل هذا العمل؛ وإنما يقوم به الخدم الصغار. ومن المؤكد أن الشاعر قد عمد إلى هذه

الصيغة للدلالة على هذا المعنى؛ لأننا رأيناه فى بيت آخر من القصيدة يزيد من تعميق معنى السيادة عنده باستخدامه لصيغة "أفعل" فى قوله عن فرسه "أخدمته عبدا"، فهذه الصيغة فى دلالتها على معنى السيادة – تختلف تمامًا عما لو قال : "خدمه عبد" أو "يخدمه عبد".

وانظر إلى تنكيره لكلمة "فرس"، فهو تنكير مقصود للدلالة على أنه يعنى جنس الفرس كله، وللإشادة به من جهة ثانية. ولو كان قد جاء بالكلمة معرفة بالألف واللام ما أفادت هذه الخصوصية.

وإذا كان الأسلوب الخبرى قد فرض نفسه ليكون وعاء فنيًا لإخراج التجربة؛ فإنه قد احتوى بداخله ألوانًا من أساليب القصر المفيدة للتخصيص والتوكيد وتقوية المعنى.

وأول ما يصادفنا فى النص من هذه الأساليب قوله : "يعاتبنى فى الدين قومى"، حيث قدم ما حقه أن يتأخر –أعنى : الجار والمجرور على الفاعل– وهذا يفيد : أن عتاب قومه له لم يكن إلا فى الدين .. الأمر الذى يوحى بنبل السبب فيما اعتراه من ديون، كما يوحى بعمق الأسى الذى يملأ قلبه من عتاب قومه له على شىء لا يبغى من ورائه إلا الخير لهم.

وثالث ما يلقانا من هذه الأساليب : قوله : "لهم جل مالى" فقد قدم الخبر على المبتدأ، فأفاد التقديم أن أغلب مال الشاعر كان لأفراد قبيلته، فكان هو المعطى، وكانوا هم الآخذين .. الأمر الذى يوحى بأنه كان شيخًا للقبيلة من طراز خاص، يختلف عما كان سائدًا من النظم القبلية التى كانت تفرض أن يأخذ شيخ القبيلة أكثر مما يعطى ليتمكن من إظهار القبيلة أمام القبائل الأخرى بمظهر مشرف يعلى من شأنها جودًا، ويرفع من قدرها قوة.

ورابع ما يلقانا من هذه الأساليب : قوله –بعد الأسلوب السابق

مباشرة- : "إن تتابع لى غنى" حيث قدم الجار والمجرور "لى" على الفاعل "غنى"، فأفاد التقديم أنه لا يعطى إلا من ماله. وأنه حين يعطى إنما يعطيهم هم؛ فما لهم بعد ذلك يلومونه على ما بذله فى سبيلهم ؟! إن هذا لشىء عجاب!!

وآخر ما يلقانا من هذه الأساليب : قوله : "وما شيمة لى غيرها تشبه العبدا"، فصوغ العبارة بهذا الشكل يدلنا على ما كان يقوم به فى إكرامه للضيف نيابة عن إخوته وبنى عمه من خدمته بنفسه، وإجابته فى كل مطالبه، ولين الجانب معه، والسهر إلى جواره كأنه واحد من الأرقاء خادم لسيده. ولما كانت العبودية لغير الله مما تأباه النفس البشرية ولاسيما إذا كان المرء كبيرًا لقوم فإنه حصرها فى إكرام الضيف فقط ... الأمر الذى يفيد حرصه البالغ فى إكرام الضيف، وتواضعه فى حضرته، حتى لو وصل الأمر إلى حد العبودية، والتحول من السيادة إليها. ويفيد -كذلك- أنه يثبت لنفسه صفات العربى الأصيل من الإباء والشمم، والترفع عن صغائر الأمور، والبعد عن القيام بأعمال لا يقوم بها أمثاله من السادة الزعماء.

وعلاوة على ما تقدم من أساليب القصر التى أبرزت المعانى فى حلل بهية لها من الدلالات والإيحاءات ما عرفناه، فقد أكثر الشاعر من أساليب الشرط الدالة على وقوع الجواب كلما وقع الشرط. وهذه الأساليب واضحة فى غنى عن الذكر.

وعلى الرغم من أن حكاية الخبر هى الثوب الذى ارتداه الشاعر فى صوغ التجربة، فإن ذلك لم يمنع من لجوئه إلى رسم الصور المتخيلة التى تساعد على إبراز معالم ما يريده بوضوح تام. وقد اعتمد فى رسم هذه الصور على الفنون البيانية من تشبيه ومجاز مرسل واستعارة وكناية. وقد سبق التلميح إلى

ما احتواه النص من تشبيه فى "مكللة لحما" ومجاز مرسل فى "الفرس النهد العتيق" واستعارة مكنية فى "ثغور حقوق" وفى "ضيعوا غيبى" و"هدموا مجدى" و"بنيت لهم مجدا".

أما الكناية فهى الفن البيانى الشائع فى رسم الصورة بالقصيدة؛ فتراه -مثلاً- قد كنى عن الجود بالجفنة الممتلئة طعامًا، والتى لا يغلق باب الدار دونها. وكنى عن حمايته لقومه بالإعداد الجيد لفرسه، وبتكليف عبده بالعناية به استعدادًا للحرب إذا ما دعا الداعى أو علا صوت النفير. وكنى عن القبيلة بالبيت إشعارًا بأن إخوته وبنى عمه هم الملاذ الذى يأوى إليه ويجد فيه راحته وسكناه. وكنى عن "الغيبة" بأكل اللحم. وواضح أنه قد استمد هذه الكناية من ثقافته الإسلامية، فقد صور القرآن الكريم الغيبة أجمل تصوير فى قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وجاء فى السنة النبوية العطرة أن الرسول ﷺ قال لرجلين اغتابا مسلمًا : «إنى أرى خضرة اللحم على أفواهكما».

وكنى عما كان يتمناه إخوته وبنو عمه من الشر له بقوله : «زجروا طيرا بنحس تمر بى»، وكنى عما كان يتمناه لهم من الخير بقوله : «زجرت لهم طيرًا تمر بهم سعدًا». وواضح أن الكناية فى هذين الموضعين مستقاة مما شاع فى البيئة من مظاهر التفاؤل والتشاؤم.

وكنى عن استغنائه عنهم وقت الفاقة بقوله : "لم أكلفهم رفدا"، وكنى عن عنايته بالضيف النازل طوال إقامته عنده بالعبودية له.

فهذه كنايات عديدة عبرت عن المعانى بطريق غير مباشر، فجاءت بها فى ثوب أنيق موضح ومشخص وحامل للمقصود ومعه الدليل.

وأما القالب الموسيقى الذى اختاره الشاعر للقصيدة فهو كما ترى "البحر الطويل"، وهو بحر كانت العرب تسميه "الركوب لكثرة ما كانوا يركبونه فى أشعارهم"[1]، وقد أحسن الشاعر فى بناء قصيدته عليه؛ لأنه بحر طويل ممتد يناسب الموضوعات الجادة، ويتسع لكل المعانى التى يريد الشاعر إبرازها. ومعروف أن البراعة فى اختيار البحر المناسب للموضوع من الأمور التى يحمد عليها الشاعر؛ فقد أشار ابن طباطبا العلوى -مثلاً- إلى أن الشاعر «إذا أراد بناء قصيدة، مخض المعنى الذى يريد بناء الشعر عليه والقوافى التى توافقه، والوزن الذى يسلس له القول عليه»[2]، وأشار المرزوقى -فى حديثه عن عمود الشعر- إلى «التحام أجزاء النظم، والتئامها على تخير لذيذ الوزن»[3] واشترط صاحب الصناعتين أبو هلال العسكرى -فى عمل الشعر- «أن تطلب لمعانيه وزنًا يتأتى فيه إيرادها»[4].

فالائتلاف بين الوزن والمعنى متحقق فى هذه القصيدة، الأمر الذى يجعلنا نقرر -مطمئنين- أنها من النماذج التطبيقية لنظرية الربط بين موضوع القصيدة وموسيقاها الخارجية.

وإلى جانب هذه الموسيقا الخارجية أو الظاهرة، توجد فى القصيدة موسيقا داخلية أو خفية من مظاهرها :

**أولاً** : اختيار الشاعر لألفاظه وما بينها من تلاؤم فى الحروف والحركات، وما فيها من دلالات وإيحاءات. وقد سبق توضيح ذلك.

---

(1) الفصول والغايات، ص ٢١٢، ٢١٣.

(2) عيار الشعر: ص ٥.

(3) مقدمة شرح ديوان الحماسة، ص ٩.

(4) كتاب الصناعتين، ص ١٣٩.

**ثانيًا** : تكرار بعض الألفاظ مثل أسد -سدا - لحمى - لحومهم، مجدى - مجدا، غيبى - غيبوهم، هووا - هويت، تمر بى - تمر بهم، طيرا، عبدا، مالى.

**ثالثًا** : الطباق الذى جاء عفو الخاطر بين (هدموا وبنيت) وبين (ضيعوا وحفظت) وبين (الغى والرشد) وبين (النحس والسعد) وبين (الغنى وقلة المال).

**رابعًا** : المقابلات البديعة التى أبرز الشاعر من خلالها مدى التناقض والتضاد بين موقف إخوته وبنى عمه منه وموقفه منهم، والتى اتخذت مجموعة من الصور المتنوعة على النحو الذى أوضحناه فيما سلف.

وهكذا يتضح لنا -بعد هذا الشرح المستفيض- روعة ما احتوته القصيدة من قيم موضوعية وقيم فنية. ونبل ما تدل عليه من حرص صاحبها على صلة الرحم، ومقابلة إساءة إخوته وبنى عمه بالإحسان إليهم، وحرصه الشديد على أن يعرفوا بين القبائل بالكرم، وبالقوة، وبكل المحامد التى تعلى من شأنهم، وترفع من قدرهم، وتزيد من شرفهم بين الناس. على أنها -من قبل ومن بعد- رائعة من روائع الأدب الإسلامى المعتز بصلة الأرحام أيما اعتزاز، المتمسك بالقيم الإسلامية النبيلة أيما تمسك.

# من بائية الكميت
# فى حب أهل البيت

## أولا : التعريف بالكميت

هو الكميت بن زيد المنتهى نسبه إلى قبيلة أسد المضرية . ولد بالكوفة سنة ٦٠ هـ، وبها نشأ وتثقف، وكانت الكوفة وقتئذ مقر المتشعيين لبنى هاشم، الناقمين على بنى أمية استئثارهم بالحكم، كما كانت حاضرة الأدب واللغة والعلم، فأخذ عن علمائها علوم الدين والأدب فأضاف إلى الشعر ثقافة علمية ولغوية غزيرة.

وقد اتصل الكميت ببيئات المتكلمين، وتلقن منهم طرقهم فى الجدال والحوار والاستدلال، وتحول يستخدمها فى شعره والخروج منها إلى أن الشيعة أصحاب الخلافة. ويلتزم الكميت فى جدله وحواره قوانين علم المنطق من حيث الإتيان بالمقدمات الصحيحة للوصول إلى النتائج الصحيحة أيضاً. ويعد أول من فتح للشيعة باب الاحتجاج لمذهبهم ودلهم على طرق هذا الاحتجاج، وهذا لايعتمد على الإقناع الباطل إنما يعتمد على الإقناع الفعلى ويدعم طرقه بالاستشهاد بالقرآن الكريم وخاصة الآيات التى تقرر حق الأقربين.

وتذهب بعض الدراسات الحديثة إلى أن مجموعة شعره (الهاشميات تعد حجاجاً عقلياً، ومناظرات عقلية أكثر منها شعراً سياسياً بالمعنى القريب لهذا الشعر) [١].

ويمكن لدارس شخصية الكميت أن يتبين بوضوح جانبين فى حياته، أما الأول فتشيعه لآل البيت على المذهب الزيدى، وأما الثانى فعصبيته للمضرية ضد اليمنية.

---

(١) حياة الشعر فى الكوفة : ٤٢٤.

ولما كانت نشأة الكميت فى الكوفة، وكانت الكوفة المركز الأساسى لحركات الشيعة ونشاطهم فى العصر الأموى لذلك تشيع الكميت. ولكنه كان شيعياً معتدلاً على المذهب الزيدى دون مغالاة أو تطرف.

وتتلخص عقيدته فى أن أبناء على أحق الناس بالخلافة وأن الأمويين قد اغتصبوا هذا الحق منهم، وهو لايكفر أبا بكر وعمر كما قال بذلك غلاة الشيعة بل يذهب إلى أنهما من صحابة الرسول ولايصح لمسلم أن يحكم بتكفيرهما وقد ذهب الكميت مذهب إمامه زيد بن على الذى قال بصحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل، وبذلك صحح خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على لمصلحة رآها الصحابة. وكان يتورع عن لعنهم، وقد وصل به الاعتدال إلى حد إخلاص الصحبة لمخالفه فى العقيدة، ومن ذلك ما كان بينه وبين الطرماح بن حكيم من صداقة وصحبة مع أن الطرماح كان من الخوارج، وهم يعادون الشيعة أكثر مما يعاديهم أهل السنة، وتعزى صداقته للطرماح إلى اتفاق الشاعرين فى معاداة بنى مروان.

وقد بلغ من حب الكميت لتشيعه أنه كان يصرف من يريد المناظرة معه من الخصوم فى مذهبه خشية أن تتحول المناظرة إلى قذف فى أئمته الذين يحبهم ويشغف بهم كما فعل مع حكيم بن عياش الكلبى الذى حاول أن يدخل معه مجادلاً فى نظريته فصرفه إلى العصبية اليمنية يناضل عنها.

وكان لسياسة بنى مروان المتشددة فى معاملة الشيعة أثرها فى نفسية الكميت وشعره فقد أخذت الدولة الأموية الشيعة بالشدة والعنف وتتبعوا أهل البيت بالقتل والتشريد والتعذيب فقتلوا الحسين بن على بكربلاء على صورة بشعة، كما قتلوا زيد بن على بن الحسين (١٢٢ هـ) الذى خرج على هشام بن عبد الملك، وجعلوا جثمانه بالكوفة وأحرقوه، ولما خرج ابنه يحيى بن زيد بن على بن الحسين على الوليد بن يزيد بخراسان قتلوه سنة ١٢٥ هـ وأحرقوا

جثمانه وذروا رماده فى الفرات. وكان لعنف الحجاج بن يوسف الثقفى بشيعة العراق الأثر الكبير فى نفوس الشيعة بخاصة ونفوس المسلمين بعامة.

وأسرف المروانيون فى خصومتهم للشيعة، وأفرطوا فى محاربة بنى هاشم حتى أنهم كانوا يلعنون عليا على منابرهم.

وقد تأثر الكميت تأثراً كبيراً بموقف المروانيين من الشيعة لذلك وجدناه يهجوهم ويرميهم بالجور، والانحراف عن جادة الدين، ويدعوا للثورة عليهم لسياستهم الغاشمة.

هذا وقد مات الكميت مقتولاً عام ١٢٦ هـ فى خلافة مروان بن محمد.

# ثانياً

# « النص »

## ١ - حبه لبنى هاشم

١ - طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

ولا لعــبا منى ، وذو الشيب يلــعب

٢ - ولم يلهينى دار ولا رسم مـنزل

ولم يتطــربنى بــنــان مخــضب

٣ - ولكن إلى أهل الفضائل والنهى

وخــير بنى حواء، و الخــير يطلــب

٤ - إلى النفر البيض الذين بحــبهم

إلـــى الله فيــما نــالنــى أتــقــرب

٥ - بنى هــاشـــم رهط النبى فإننى

بهم ولهـــم أرضى مرارا وأغـضب

---

١ - طربت : هزنى الشوق . البيض : النساء الحسناوات. لعبا : لهوا. الشيب : بياض الشعر.

٢ - دار : المراد منزل الأحبة ينفى بذلك عن نفسه ماكان يفعله الشعراء من بكاء الديار والوقوف على الأطلال. رسم منزل : أثره. يتطربنى : يجــعلنى أطرب. بنان : أطراف الأصــابع والمفرد بنانة. مخضب : مصبوغ بالخضاب وهو الحناء.

٣ - النهى : جمع نهية وهى العقل.

٤ - البيض : المراد الأشراف. نالنى : أصابنى من أذى بسبب حبى لهم. رهط النبى : المراد أهله.

## ٢ - مواقفه فى تأييدهم

٦ - خفضت لهم منى جناحى مــودة

إلى كنــف عطــفاه أهــل ومرحــب

٧ - وكنت لهــم من هـــؤلاء وهؤلا

ء مجنــا علــى أنــى أذم وأقصــب

٨ - فقل للذى فى ظــل عمياء جونة

ترى الجور عدلاً، أين - لا أين - تذهب؟

٩ - بأى كــتاب أم بأيــة سنــــة

ترى حبهم عــارا عــلى وتحسـب؟!

١٠ - يعيـبوننى من خــبهم وضلالهم

على حبكم، بل يسخــرون، وأعجــب

---

٦- مودة : حب . خفضت لهم جناحى مودة : المراد تواضعت لهم. كنف : ناحية. عطفاه : جانباه. مرحب : مكان رحيب واسع.

٧ - هؤلاء وهؤلاء : إشارة إلى الأمويين والخوارج. واكتفى بالإشارة إليهم لعدم اهتمامه بذكرهم. المجن : الترس الذى تتقى به الضربات فى الحرب. أقصب: اشتم.

٨ - ظل : المراد هنا ظلام. عمياء : ضلالة. جونة : سوداء. الجور : الظلم. لا أين : جملة دعائية معناها لا هديت إلى طريق الرشاد.

٩ - كتاب : المراد القرآن الكريم.

١٠- خبهم : خبثهم.

## ٣ - حقهم فى الخلافة

١١- وقـــالوا : ورثنــاها أبانا وأمنا

وما ورثتـــهـــم ذاك أم ولا أب

١٢- يرون لهم حقا على الناس واجبا

ســفاها، وحــق الهاشمــيين أوجـب

١٣- يقولون : لم يورث، ولولا تراثه

لــقد شـركـت فيـه بكيل وأرحـب

١٤- فان هى لم تصلح لحى سـواهم

فــان ذوى الـقــربى أحـــق وأقرب

---

١١- قالوا : قال الأمويين . ورثناها : أى الخلافة.

١٢- سفاها : جهلاً وباطلاً.

١٣- لم يورث : أى أن الر .ل لايرثه أحد. تراثه : وراثته. بكيل، وأرحب : فرعان ضعيفان من قبيلة همدان.

١٤- حى : قبيلة.

## ٤ - هم الصفوة المختارة

١٥ - أناس بهم عزت قريـــش، فأصبحوا

وفيهـــم خبـــاء المكرمـــات المـطـنب

١٦ - مصفون فى الأحساب، محض نجارهم

هـــم المحض منا، والـصـــريح المهـذب

١٧ - لهم رتب فضـــل على الناس كلهم

فضائـــــل يستعـــلى بهـــا المــتـرتـب

١٨ - أولئــك إن شطت بـــهم غربة النوى

أمانى نفســى، والهـــوى حيـــث يسقب

---

١٥ - خباء : خيمة. المطنب : المشدود بالأطناب وهى الحبال.

١٦ - محض : خالص مصفى. نجارهم : أصلهم. الصريح : الخالص.

١٧ - رتب : درجات . فضل : زائدة. يستعلى : يرتفع. المترتب : الراغب فى أعلى المراتب.

١٨ - شطت : بعدت. النوى : البعد. أمانى نفسى : المراد أملى فى الحياة. الهوى : الحب. يسقب : يقرب. والمعنى أن الحب يكون لأقرب الناس إلى القلب.

## المعنى العام للقصيدة

يقول الكميت فى الأبيات (١ – ٥) إن الشوق قد هزنى، وأن ذلك ليس مبعثه حب النساء الجميلات أو الرغبة فى اللهو والعبث مع أن غيرى من الشيب قد يلهون ويلعبون، ولست ممن يتعلقون بالأطلال ويبكون على آثار الديار أو يستخفهم جمال النساء. ولكن طربى وشوقى مبعثه حبى لأهل الصفات الحميدة والعقول الراجحة وخير الناس شرفاً وفضلاً والخير جدير أن يطلب، هؤلاء الأشراف الذين أخلص لهم وأتقرب إلى الله بما ينالنى من أذى فى سبيل حبهم، ولا عجب فى ذلك فهم آل النبى الكريم الذين لا أرضى إلا بما يرضيهم ولا أغضب إلا من أجلهم.

ويقول فى الأبيات (٦ – ١٠) :

لقد أحببت بنى هاشم وتواضعت لهم عرفاناً لقدرهم وهم يكرموننى ويعطفون على فهم أهلى الذين ألقى لديهم كل ترحيب، وقد جندت نفسى للدفاع عنهم ضد خصومهم على الرغم مما ينالنى من ذم وإيذاء، ثم يتوجه باللوم والتوبيخ إلى كل من أعماه ضلاله عن حب آل البيت منحرفاً عن الطريق السليم ويدعو عليه بعدم الرشد ثم يتحداه أن يأتى بدليل من الكتاب أو السنة على خطئه فى الإخلاص لبنى هاشم، إن هؤلاء الأعداء الخبثاء يعيبوننى على حبى لكم أيها الأشراف ويسخرون منى وأنا لا أهتم بهم بل أتعجب من هذا الموقف المتعنت.

ويقول فى الأبيات (١١ – ١٤) :

لقد زعم الأمويون أنهم ورثوا الخلافة عن آبائهم وأمهاتهم لأنهم قرشيون وأن طاعة الناس لهم حق واجب وهذا زعم فاسد لبعض أنسابهم عن الرسول

وبالتالى فحكمهم باطل لاتجوز طاعته فالهاشميون أحق بالخلافة وبطاعة الناس لهم لأنهم آل النبى. وقد يقول الأمويون إن النبى لايرثه أحد وهذا القول عليهم لا لهم فلولا الوراثة وقرابة قريش للرسول ما قصرت الخلافة عليها ولكانت مباحة لجميع القبائل حتى (بكيل وأرحب) مع أن - الأمويين يقررون أنها حق لقريش الذين هم منها، فإذا تحددت الخلافة فى قريش وحدها وجب أن تكون لأقرب الناس إلى رسول الله وهم بنو هاشم. والشاعر كما ترى بارع فى الجدال المنطقى المرتب الذى يفجم الخصم ويبطل حجته ويحقق هدفه من إثبات حق الهاشميين فى الخلافة والطاعة. والجدل بطبيعته يستند على الحقائق ولايحتاج إلى الخيال وبراعة التصوير ولذلك خلا هذا المقطع من الصور.

ويقول فى الأبيات (١٥ - ١٨) :

بالهاشميين صارت لقريش مكانتها الرفيعة فهم أصل المكارم والفضائل وأشرف الناس أحساباً، وأنقاهم نفوساً، وأعلاهم درجة ولهم فضائل يقتدى بها من يرغب فى الرفعة والمجد، وسأظل محباً لهم وإن باعدت بيننا الأيام فالأرواح متآلفة والقلوب متجاوبة هذا هو المعنى العام للأبيات

**الخصائص الموضوعية :**

أما الخصائص الموضوعية لها فواضح أن الكميت قد تناول فيها أكثر من موضوع، وقد استهلها بمطلع رائع عبر فيه عن مشاعره وحبه لآل البيت النبوى، وقد خرج فيه على مألوف الشعراء الذين كانوا يبدؤون قصائدهم بالغزل التقليدى الذى يملأ قلوبهم بالطرب والشوق إلى النساء.

ثم تحدث عن حبه لبنى هاشم، ودافع عنهم، ورد على من يعيبون عليه ذلك، ثم ناقش حجج الأمويين وقدم أدلة منطقية وخطابية فيها إقناع وقوة

تعتمد على فضائلهم الذاتية وصفاتهم الكاملة فهم لايستحقون الخلافة لقرابتهم للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه فحسب، بل لأنهم أهل لها لما طبعوا وصلوا عليه من مناقب الخير، وصفات السيادة وهكذا أجاد الشاعر فى تصوير حبه لبنى هاشم والحديث عن صفاتهم وحقهم فى الخلافة يقول :

أولئك إن شطت بهم غربة النوى      أمانى نفسى والهوى حيث يسقب

فالبيت تعبير قوى عن عاطفة حارة نقية وحب لوجه الله.

ويمكن لدارس هذه الأبيات أن يتبين الخصائص الموضوعية التالية:

**أولاً** : دعوة الكميت إلى نبذ الوقوف على الأطلال وبكاء الأحبة على عادة القصائد القديمة التى كان الشعراء يبدؤونها بالمقدمات الغزلية والطللية، إنما خصص بداية شعره بحب بنى هاشم آل البيت، والنسيب بهم.

وهذا التحول السلبى الذى أعطاه الكميت لمقدمة القصيدة العربية يعد ظاهرة فنية جديدة تلفت النظر فى الهاشميات. ومعنى هذا أن الكميت كان يدور فى عكس اتجاه الشعراء حين رفض أن يقف على الديار، أو يبكى الأطلال، أو يتذكر غراماً قديماً. ولعل هذه البداية ما جعلت الفرزدق بعد أن سمع منه مطلع قصيدته يقول له : « قد طربت إلى شئ ما طرب إليه أحد قبلك، فأما نحن فما نطرب، ولا طرب من كان قبلنا إلا إلى ما تركت أنت الطرب إليه».

**ثانياً** : لجأ الكميت فى مطلع قصيدته إلى عامل الإثارة والتشويق فقد استطاع أن يشد انتباه القارئ إلى ما يقول فقد نعى أن يكون سبب طربه شوقه إلى النساء الحسناوات، أو ميله إلى اللعب واللهو، أو حنينه إلى دار الأحبة، أو تذكره أيامه السعيدة بين أطلالها، أو افتتانه بزينة النساء، ثم أشار فى البيت

الثالث إلى سبب طربه وهو حبه وشوقه لأهل الفضائل، ثم يزيدهم إيضاحاً وبياناً فى البيت الرابع بوصفهم بالنفر البيض، ولكنه لم يحددهم، ثم يذكر فى البيت الخامس أنهم بنو هاشم، ويزيدهم تحديداً بقوله : «رهط النبى» فكان هذا الإيضاح المتدرج المتسلسل عامل إثارة وتشويق.

**ثالثاً** : يلاحظ أن أكثر الصفات التى مدح بها الكميت بنى هاشم من صفات النفس لا الجسم وهذا هو خير ما يمدح به ولهذا عاب عبد الملك بن مروان على عبيد الله بن قيس الرقيات قوله فيه :

يعتدل التـاج فـوق مفـرقه　　　علـى جبـين كأنـه الذهـب

فقال له : أما لمصعب فتقول :

إنما مصعب شهـاب من اللــ　　　ـه تجلت عن وجهه الظلماء

وأما لى فتقول : على جبين كأنه الذهب.

وأكثر ما وصف الكميت به بنى هاشم أنهم بررة، أتقياء، شرفاء، علماء، كرماء، شجعان، كفاة، ساسة يأخذون بالرفق، ويراعون الحق، فصحاء، لايكثرون فى هذر، ولايصمتون مفحمين، إلى غير ذلك مما وصفهم به.

رابعاً : اعتمد فى قصيدته على أمرين : التصوير والاحتجاج، فهو يصور ما حل ببنى هاشم من الاضطهاد، والتنكيل والقتل، وما لقوه من العنت والبلاء تصويراً يثير الشفقة، ويستدر الدموع، وهو يحتج لحق بنى هاشم فى الخلافة فيقول لبنى أمية كيف تنكرون تراث بنى هاشم وأنتم تزعمون أن الخلافة إرث فى قريش وحدها، ولولا هذا التراث لكان لقبائل العرب الأخرى مثل ما لقريش من الحق فى الخلافة، وإلى هذا أشار الجاحظ بقوله : ما فتح للشيعة باب الحجاج إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلح لحى سواهـم | فإن ذوى القربى أحق وأوجب
يقولون : لم يورث ولولا تراثـه | لقد شـركت فيه بكيل وأرحـب

وحرى بالذكر أن بائية الكميت التى منها هذه الأبيات جاءت مختومة بوصف الناقة مخالفاً بذلك عامة الشعراء القدامى الذين كانوا يأتون بوصف الناقة بعد مقدمتهم الغزلية أو الطللية وقبل الإتيان بالغرض الذى من أجله أنشئت القصيدة وربما عاد ذلك إلى أن قصد الكميت لم يكن كقصد غيره من الشعراء السابقين وهو عنده أهم من النسيب ومن وصف الناقة لذلك وجدناه يؤخر وصف الناقة بعد انتهائه من ذكر قصده من إنشاء القصيدة.

## الخصائص الفنية :

نلاحظ أن التعبير جاء ملائماً لعاطفة الكميت التى تفيض حباً لآل البيت فأنت مثلاً ترى فى النص هذه الألفاظ الملائمة لهذه العاطفة مثل : (طربت، شوقاً، أهل الفضائل والنهى، الخير يطلب، النفر البيض، بحبهم، بنى هاشم، رهط النبى) كما أن تقديم الجار والمجرور على الفعل فى (بهم أرضى ولهم أغضب) يدل على شدة الإخلاص لبنى هاشم وقصر حبه عليهم وغضبه على كل ما يغضبهم فهو لايرضى إلا بهم ولايغاضب إلا من أجلهم. ولكننا نلاحظ أن كلمة (مراراً) تغض من قوة المعنى فإذا كان رضاه وغضبه دائمين من أجلهم فلا داعى لأن يقول مراراً التى قد يفهم منها أنه فى مرات أخرى ليس كذلك.

العاطفة والتعبير الألفاظ والأساليب

وفى المقطع الثانى مواقف نفسية متنوعة ولكل منها تعبيره الملائم ففى إعلانه عن حبه وتواضعه يستخدم «خفضت، مودة أهل، مرحب» وفى دفاعه وصلابته يختار «مجنا، أذم، أقصب» ووفى توبيخه للمعارضين وجدالهم

يستخدم «ظل، عمياء، جونة، الجور، لا أين، يصيبونني، خبهم، ضلالهم، يسخرون».

ولما كانت الأبيات المكونة للمقطع الرابع مادحة للهاشميين، مشيدة بفضلهم، نابعة من حب صادق لهم وعاطفة جياشة ، جاءت الألفاظ والصفات ملائمة لذلك أيضاً مثل : (عزت المكرمات، مصفون، الأحساب، نجارهم، الصريح، المهذب، فضائل) وهى كما ترى قوية جزلة تلائم طبيعة المدح الذى يحتاج إلى الفخامة.

فالألفاظ تتسم بحسن الاختيار، والدقة التامة فى الانتقاء. على أنها جميعاً ألفاظ موحية معبرة، فعلى سبيل المثال تراه فى البيت الأول يذكر «البيض» كناية عن النساء ليوحى بأنهن من ذوات النعمة والترف. وقوله «وذو الشيب يلعب» تبرير لعدم استهجان اللعب واللهو من مثله، ونلاحظ أنه بدأ الشطر الأول بقوله : «طربت» ثم ختمه بقوله «أطرب» كما بدأ الشطر الثانى بقوله «ولا لعبا» وأنهاه بقوله «يلعب» وتحس لهذا التلاعب بالألفاظ رنة موسيقية مقبولة.

وفى البيت الثانى يقول «ولم يتطربنى بنان مخضب» وربما سبق إلى ذهنك أنه يكرر حديثه عن النساء الحسناوات ولكنك إذا تأملت فى التعبير وجدت أنه ينفى عنه نفسه الافتتان بزينة المرأة المثيرة.

وفى البيت الثالث تجد فى قوله : «والخير يطلب» تعليلاً لحبه لبنى هاشم وتعلقه بهم. وفى وصفه النفر «البيض» فى البيت الرابع إشارة إلى أنهم من ذوى النعمة والشرف، وإلماح إلى وضاءة وجوههم بنور اليقين والصلاح. وفى وصفه بأنهم (رهط النبى) فى البيت الخامس تأكيد لاعتزازه بهم.

وفى البيت السابع يبرز قوة دفاعه عنهم وصموده حفاظاً عليهم فيصور نفسه بالترس الذى يتقى به المقاتل ضربات خصمه فى قوله : «وكنت لهم من

هؤلاء وهؤلاء مجناً، ثم انظر إلى استخدامه اسم الإشارة وتكراره تجده يوحى بكثرة الأعداء واستهانة الشاعر بهم واحتقاره لهم، وإذا كان «القصب» معناه القطع فإن الشاعر قد أوحى بقوله «أقصب» بقسوة مايصيبه من أذى الأعداء وسبهم وأنه أصيب فى بدنه. ويعبر عن شدة ضلال أعداء بنى هاشم فى البيت الثامن بقوله : «الذى فى ظل عمياء جونة» ويستخدم الاستفهام فى «أين تذهب» للتوبيخ أما قوله «لا أين» فقد عاد عليهم بالضلالة والبعد عن الرشاد. ونلمح فى قوله : «ترى الجور عدلاً» إيحاء بجهالة الأعداء ووصماً لهم بالعمى.

والاستفهام فى البيت التاسع للإنكار، وفى ضوء كلمة «تحسب» تجد معنى «ترى» فى قوله : «ترى حبهم عاراً» تظن وتزعم.

وتحس بحيرته ودهشته أمام موقف الخصوم من قوله «أعجب» فى البيت العاشر.

أما الأبيات من الحادى عشر إلى الرابع عشر، فقد عنى فيها الشاعر بمجادلة الأمويين بعبارات دقيقة وأفكار منطقية.

وفى البيت الخامس عشر تجد فى قوله : «وفيهم خباء المكرمات المطنب» بياناً لنسبة المكرمات والفضائل إلى قريش، وفى كلمة «المطنب» إيحاء بضخامة حظهم من هذه الفضائل.

وفى البيت السادس عشر تجد كلمات : «مصفون، ومحض، وصريح» فتسبق إلى ذهنك صورة اللبن الخالص النقى وهى صورة يريد بها إبراز نقاء أصولهم وأحسابهم وطهارتها.

وفى البيت السابع عشر فى قوله : «فضائل يستعلى بها المترتب» يصور

الفضائل بالسلم يصعد عليه الإنسان ليؤكد أثر هذه الفضائل فى رفعة المقتدين بهم والمهتدين بهديهم.

وفى البيت الثامن عشر فى قوله : «شطت، وغربة، والنوى» تتآزر الألفاظ لتنبت فى النفس شعوراً قوياً بالبعد والفراق، وقوله : «والهوى حيث يسقب» تعليل لشدة تعلقه بهم وتمنيه لقاءهم وقربهم.

وأغلب الأساليب فى النص أساليب خبرية غرضها الفخر بمنهجه فى الطرب فى البيتين الأول والثانى، والمدح فى الأبيات الثالث والرابع والخامس ، والفخر بإخلاصه لهم ودفاعه عنهم فى البيتين السادس والسابع، والذم فى البيت العاشر، والسخرية بتفكير الأمويين فى أحقية الخلافة بالوراثة، وتقرير حق الهاشميين بها فى الأبيات المكونة للمقطع الثالث، والمدح والثناء فى أبيات المقطع الرابع.

ومن الأساليب الإنشائية فى النص : (فقل) أمر للالتماس، و (أين تذهب؟) استفهام للتوبيخ، و (بأى كتاب أم بأية سنة؟) استفهام للنفى والإنكار.

- وقد استعان الكميت لإبراز عاطفته وتوضيح أفكاره وإبراز المعنوى فى صورة المحسوس بالصور الخيالية فاستطاع أن يكون أعمق تأثيراً، وأكثر إقناعاً، كما استطاع أن يهز المشاعر، ويثير العواطف.

ففى البيت الأول : (البيض) كناية عن موصوف هو الجميلات (ذو الشيب) كناية عن موصوف هو (كبير السن). وفى البيت الثانى : (بنان مخضب) مجاز مرسل عن المرأة علاقته الجزئية فقد أطلق الجزء وأراد الكل وسر جماله الإيجاز والمبالغة والبراعة فى اختيار العلاقة بين المعنى الأصلى والمجازى فإن المرأة كثيراً ما تفتن فى تزيين يدها بالخضاب، وفى البيت

الثالث : (بنى حواء) كناية عن الناس وهى توحى بأن شرف العلويين من جهة الأم وهى السيدة فاطمة الزهراء أقوى ولذلك لم يقل (بنى آدم). وفى البيت الرابع : (النفر البيض) كناية عن الأشراف وهم بنو هاشم، فالعرب كانوا يعتبرون البياض فى الجاهلية دليل السيادة والشرف وظل ذلك الاستعمال فى اللغة.

وفى البيت السادس : (جناحى مودة) استعارة مكنية صور فيها المودة طائراً وحذفه ودل عليه بشئ من لوازمه وهو (جناحى) (خفضت لهم منى جناحى مودة) كناية عن صفة هى تواضعه لهم وهى صورة رائعة تجسم المعنى وتزيده وضوحاً وتوحى بإجلاله لهم وعرفانه لأقدارهم وقد اقتبسها الشاعر من قوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة). وفى البيت السابع : (وكنت لهم مجناً) تشبيه بليغ يوحى بصلابته فى الدفاع عن الهاشميين، وهو تشبيه منتزع من البيئة التى تكثر فيها الحروب. وفى البيت الثامن : (ظل عمياء) استعارة مكنية تجسم الضلالة وتجعل لها ظلاً، (الذى فى ظل عمياء) كناية عن أعداء الهاشميين وهى توحى ببعدهم عن الصواب وعدم إبصارهم الحق الواضح.

وفى البيت الخامس عشر : (فيهم خباء المكرمات) كناية عن نسبة المكرمات إليهم وهى منتزعة من البيئة البدوية وتوحى بأنهم أصل لكل مجد وشرف. وفى البيت السادس عشر : (مصفون فى الأحساب) استعارة مكنية تصور الأحساب فى طهارتها ونقائها بصورة حسية تجسم المعنى. وكذلك (محض نجارهم) استعارة مكنية تصور أصلهم بشراب مصفى.

ونلاحظ خلو الأبيات التى يجادل فيها الكميت الأمويين من الصور الخيالية، وهو أمر طبيعى فموقف الدفاع والجدل يستند غالباً إلى الحقيقة والمنطق أكثر مما يعتمد على الخيال وبراعة التصوير. وقد اعتمد الشاعر فيها

على إيراد حجة الخصم وإبطالها في وضوح وتسلسل ظهر أثره في المقابلة بين العبارات في كل بيت من هذه الأبيات مثل (قالوا ورثناها ... وما ورثتهم.. إلخ).

ولذلك نجد في القصيدة فكرة كما نجد دفاعاً فيه الكثير من المنطق وإذا كان الشعر بعيداً بطبيعته عن المنطق والاتجاه إلى الفكر المرتب فإن الكميت استطاع في هذه القصيدة أن يخضع الأسلوب الشعرى لبعض قواعد الفكر والمنطق فهو يسوق حجة الأمويين ثم ينقضها.

وإن دل هذا على شئ فإنما يدل على أن هذا النص تتجلى فيه ثقافة العصر العقلية وأخذ الكميت منها بحظ وافر مما ساعد على رقيه العقلى وأخذه بأساليب العلماء والمتكلمين في عرض الآراء وطرق الاستدلال فتجلت في النص البراعة في التمهيد، وحسن الإنتقال من فكرة إلى فكرة، وفي المزج بين العاطفة الدينية والمذهب السياسى، وفي ردوده القوية التى أجاد عرضها وترتيبها حتى لقد قال فيه النقاد «إن الكميت أول من فتح للشيعة الطريق لمناظرة خصومهم بالشعر، وقوة الرد عليهم».

وفي النص بعض محسنات بديعية جاءت عفو الخاطر فوضحت المعنى، وأكدت الفكرة، وكانت لوناً من ألوان الموسيقا الداخلية فيه ومنها المقابلة التى ذكرناها آنفاً، ومنها الطباق بين الجور وعدلا.

ونلمس في النص حرارة العاطفة الحزينة، وصدق الإيمان، وقوة الإعجاب بآل البيت، وشدة الإخلاص للعقيدة لأنه كان يدعو لآل البيت مستجيباً لنداء عقيدته، وحبه على عكس شعراء بنى أمية الذين كانوا في شعرهم يستجيبون لنداء المنفعة والمال. وتمتلئ القصيدة بعاطفة الكميت الجياشة في حب آل البيت ولا غرو فموضوعها هو حب آل البيت، وهو

موضوع وجد فيه الشاعر مجالاً خصباً لمشاعره ووجدانه الصادق، وقد استطاع الكميت بذلك أن يذكى العواطف، ويلهب الشعور وأن يمزج فى براعة فائقة بين العاطفة الدينية والمبدأ السياسى مما كان له أكبر الأثر فى روعة القصيدة وجمالها.

والنص لون رائع من الشعر العلوى يمدح فيه الكميت بنى هاشم ويدافع عن حقهم فى الخلافة ويجادل خصومهم جدالاً منطقياً يصور عنف الصراع بين الهاشميين والأمويين ويرسم خطوطاً بارزة للمنافسة الحزبية التى شاعت فى العصر الأموى.

والأفكار التى تناولها الشاعر عميقة يبدو فيها التفكير السليم وقوة الحجة، والترتيب المنطقى والمزج بين المبدأ السياسى والنزعة الدينية مما جعل النقاد يعتبرون الكميت فاتح باب الجدل والمناظرة للشيعة ويعدونه شاعرهم الأول.

والصور والأخيلة قليلة فى النص لاعتماد الشاعر على الإقناع المنطقى وعلى التأثير عن طريق العاطفة الدينية المتدفقة والولاء الصادق لآل البيت ومع ذلك فإن الصور التى جاء بها رائعة ومتأثرة بالبيئة.

وتبدو الروح الإسلامية فى النص واضحة كما نرى فى ترديد الكلمات والعبارات الإسلامية مثل «إلى الله فيما نالنى أتقرب» «بأى كتاب أم بأية سنة».

ويبدو تأثر الكميت بالقرآن الكريم فى البيت السادس حيث يذكرنا بقول الله سبحانه «واخفض لهما جناح الذل من الرحمة» والصورة فى هذا البيت توحى بالخضوع والرفق والتواضع كما سبق القول.

ويبدو تأثر الكميت بالقرآن الكريم واضحاً فى أبيات أخرى عديدة بالقصيدة لم نذكرها هنا مثل قوله:

وجدنا لكم فـى آل حاميم آيــة　　　تأولـها منـــا تقــى ومعــــــرب

وفى غيرها آيا وآيـــا تتابعـت　　　لكم نصب فيها لذى الشك منصب

فـهو يشير فى البيت الأول إلى قوله تعالى : ﴿لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى﴾، وفى البيت الثانى إلى قوله سبحانه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ وإلى قوله عز وجل : ﴿وآت ذا القربى حقه ﴾. وإلى قوله جل اسمه : ﴿ فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى ﴾.

ومثل قوله :

ألم ترنى فى حب آل محمـــــد　　　أروح وأغــو خائفاً أترقـــب

فهو اقتباس لتلك العبارة الرائعة التى يرسم فيها القرآن صورة لموسى عليه السلام حين استغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه، فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب.

ومثل قوله :

فبوركت مولوداً وبوركت ناشئا　　　وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب

وبورك قبر أنت فيه وبوركـت　　　بـــه ولـــه أهــل لـذلك يـثرب

فهو تأثر واضح بتلك الآيات الكريمة التى يتحدث فيها سبحانه عن يحيى وعيسى عليهما السلام سلاماً منه - عز وجل - عليهما يوم ولدا ويوم يموتان ويوم يبعثان.

ويبدو تأثر الكميت الواضح بالإسلام فى مشاعره وألفاظه ومعانيه، فالمعانى الدينية تسيطر على قصائد الكميت وتطبعها بطابعها فهو فى مدحه

لآل البيت وفى هجائه لبنى أمية يدور فى دائرة دينية، ويعبر عن عاطفة دينية متأصلة فى نفسه، بل عن عقل دينى سيطر عليه، والمعانى التى يمدح بها الهاشميين معانٍ إسلامية والصفات التى يهجو بها بنى أمية هى الصفات التى تباعد بين صاحبها وبين الإسلام.

وقد سلك الشاعر فى قصيدته منهجاً مشوقاً حيث كان المطلع مثيراً للانتباه بتأخيره التصريح لمن يحبهم وهم الهاشميون حتى نهاية المقطع الأول وفى خلال ذلك تدرج بالتشويق شيئاً فشيئاً إذ كان ينفى عن نفسه الميل إلى اللهو واللعب وبكاء الديار والأطلال حتى بلغ بالمشاعر غايتها فصرح بحبه لآل البيت، وجاءت ألفاظه فى النص ملائمة لكل موقف مسايرة للجو النفسى فيه وتمتاز فى مجموعها بالجزالة والوضوح وقد تأثر بهذا المطلع كثير من الشعراء ومنهم البارودى فى العصر الحديث من ذلك قوله :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب          وغيرى باللذات يلهو ويعجب

ولا ريب أن مطلع هذه القصيدة الهاشمية يوحى بالتربية الإسلامية الجادة التى نشأ عليها الكميت، والتى جعلته ينفر من اللهو والعبث ويبعد عن الغزل ويتقرب إلى الله بالصبر على الأذى فى سبيل المبدأ وكذلك التمسك بما جاء فى الكتاب والسنة والرجوع إليهما كلما دعت الضرورة.

وهناك ملامح شخصية أخرى للكميت تبدو من النص، مثل شدة حبه لآل البيت، وقوة نزعته الدينية، وترتيب أفكاره، وقوة حجته، وقدرته على الجدال، وتأثره بالجدل الذى أثير فى عصره حول مسألة الخلافة واختصاص قريش بها، ومثل قوة تحمله وصبره على الشدائد فى سبيل أهل البيت.

والخصائص الفنية لشعر الكميت كما تتضح فى هذا النص هى عمق

الأفكار والميل إلى التحليل والتفصيل، ومزج الأفكار بالعاطفة واستخدام التشويق فى التمهيد لموضوعه والقدرة على الاقناع ووضوح اللفظ وتنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء.

– ويستطيع الدارس للنص أن يضع يده على تأثر الشاعر بالبيئة العربية فقد استمد الشاعر كثيراً من صوره منها مثل «كنت لهم مجناً – فيهم خباء المكرمات – ومما جاء متأثراً بالبيئة فى أبيات بالقصيدة لم نذكرها هنا قوله يفتصلوا أفلاءها – ضباع وأذؤب – أناخوا لأخرى ذات ودقين....».

هذا وقد أدى تشيع الكميت وتعصبه على القحطانية إلى اختلاف الناس فى منزلته الشعرية فمنهم من تحامل عليه وغض من شعره، ومنهم من قدمه على شعراء الجاهلية والإسلام كمعاذ الهراء، وقد روى عن الفرزدق أنه كان معجباً بشعره، وأنه هو الذى شجع الكميت على إذاعة شعره فى الناس، ونحن نعلم ما رمى به الفرزدق من التشيع. وقد روى أنه قيل له : أحسن الكميت فى مدائحه فى تلك الهاشميات فقال : « وجد آجراً وجصا فبنى » أى وجد مادة غنية لأشعاره فأحسن فى نظمه.

وبعد : فهذا هو تحليلنا الموضوعى والفنى لتلك الأبيات التى اخترناها من أشهر هاشميات الكميت. وإذا كان لنا من كلمة نختم بها هذا التحليل فإننا نذكر أن هذا الشاعر قد بلغ الذروة فى حبه لآل البيت ... وهو حب نابع من قلبه، وانعكس على شعره الذى لم يقصد به سوى التعبير عن هذا الحب، وابتغاء مرضاة الله .. يشهد بذلك ما صرح به فى الأبيات التى سبق تحليلها، كما يشهد بذلك أنه بعد أن أبدع لاميته التى مطلعها:

ألا هل عم فى رأيه متأمـل      وهل مدبر بعد الإساءة مقبـل؟

أنشدها الإمام جعفر الصادق فى أيام التشريق (بمنى) فدعا له، وأعطاه

ألف دينار، وكسوة، فقال له الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا، ولو أردتها لأتيت من هى فى يديه، ولكنى أحببتكم للآخرة، فأما الثياب التى أصابت أجسادكم فإنى أقبلها لبركتها، وأما المال فلا أقبله [1].

ويروى أنه دخل على فاطمة بنت الحسين رضى الله عنها فقالت : هذا شاعرنا أهل البيت، وجاءت بقدح فيه سويق فحركته بيدها، وأسقته له فشربه، ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب، فهملت عيناه، وقال : لا والله لا أقبلها، إنى لا أحبكم للدنيا [1].

---

(١) انظر : خزانة الأدب ١/٧٠.
والأغانى : ١٥/١١٨.

# فهـــرس الموضوعـــات